

الدار القومية للطباعة والنشر

قصص
عربية



الكتاب
الأساسي



عبد الرحمن منسي

الملك لك

من مختارات الاذاعة والتليفزيون



الكتاب الماسي
قصص عربية

الملك والكاهن

عبد الرحمن فهد

الرجل الذي يعرف كل شيء

كان. لقاى به صدفة من الممكن ألا تقع، ولكن حديثه الى بعد أن التقينا
كان قضاء مبرما لا مفر منه ، ولقد أشعرتني نظراته بهذه الحقيقة منذ التقت
عيوننا .. كانت نظراته الباسمة فيها إحياء لم أستطع تفادى مضاه .. كانت
تقول لى :

• سأحدث اليك وتحدث الى رغم أنفك .. وستصل حديثنا حتى
يفادر أحدها القطار أتراك ستزول فى المعادى .. ؟ أم فى المعصرة .. ؟
أم ... *

وحولت عيني عن عيني لا فر من هذا السؤال المنسكب منهما .. فقد
كنت ضيق الصدر ملولا لأشعر ميل الى الدردشة الفارغة التى تجرى عادة بين
راكبى قطار غربيين يستعنان بها على قطع الوقت .. وكانت لدى فى نفس
الوقت أفكارى الخاصة التى يلذ لى أن أخلو إليها قبل أن أصكلى يثنى فى
حلوان حيث يستظرنى ضجيع أولادى الأربعة ، ونشرة أخبار الجيران ،
التي تصر زوجتى على أن قرأها على ونحن جالسان مع الأولاد الى مأذنة
الفداء .

وكان القطار قد بدأ يتحرك وثيدا من محطة السيدة زينب بين صفين
من النيت التى سود جدرانها دخان القطارات عندما كانت تسير بالفحم ..
كان ذلك منذ سنوات قبل أن يكهرب خط حلوان .. والآن .. وقد اختفى
الفحم ، وكفت القطارات عن نفث دخانها الأسود على وإجهات السيوت ..
لا يزال السواد عالقاً بالجدران .. لم يزل كثر الأيام وتوالى السنين ..
خطاً كبير مايشاع من أن الزمن يمحو الإحزان ويخفف من سيواد الأيام

• بل انه ليزيدها ثمة وكلاحة • أنا مثلاً • وأنا في الاربعين من
عمرى الآن لا أذكر أنى أحسست بالبهجة منذ خمس عشرة سنة أو أكثر
• وأحاول أن أضع يدي على سر كآبتي تلك المتصلة فلا أجد شيئاً ميسراً
• لا أستطيع أن احدد حادثاً أو ظرفاً خاصاً أرد إليه اكتئابى الدائم •
وهل نستطيع ان نحدد الزمن • ذلك الزمن المتصل بلا انقطاع • الممتد
الى غير نهاية • انه سر اكتئابى • لحظاته تمر بمرور القطارات •
كل منها ينفث في نفسى لفحة دخان • وتراكم اللفحات ، فاذا بنفسي سوداء
كثيفة •

وبدأ القطار يسرع في سيره ، وأخذت المناظر خارجه تتداخل
تفقد تحددها وذاتيتها فاصرفت عن التطلع من النافذة ، وأدرت رأسي الى
داخل القطار ، فالتقت عيناي بعينيه مرة أخرى • يا لله ! • كنت قد
نسيت في غمرة هذه الأفكار الخاصة • وهلمو الآن ينظر الى نفس النظرة
التي تقول لي في اصرار : سأحدث اليك وتحدث الى رغم أنفك •

وأخذت أتمحسه كقضاء مكتوب ليفسد على خلوتي الأثيرية بنفسى
كان فوق الخمسين ودون الستين بغير شك • فهذا الشعر الرمادي
الذي يكسو رأسه الضخم المكور لا هو في سواد شعر الشباب ولا هو في
بياض شب الشيخوخة • وهذه التجاعيد التي تبدو على وجهه الأبيض
السمن ليست جافة كما ينبغي أن تكون أخاديد الزمان • انها تجاعيد
أشبه بمنازل ضاحكة في وجه خلى طلق • وهذه الحيوية التي تدفق من
عينيه اللامعتين والتي تبدو في حركات جسمه القلقة رغم سمته • لا تزال
تنطق بتوفر وإقبال على الحياة لا يعرفهما الا الشباب • أنا نفسى فقدتهما منذ
تخطيت الخامسة والعشرين • وكان لا يزال يتسم ، ويبدو أن اللحظات
التي تمحست خلالها قد أشعرته باعتماسي به • فإزدادت سمته اتساعاً ،
وزاد اصراراً على أن يتحدث الى • فلم أملك الا أن أحول عيني الى

جدار القطار على يسارى .. وتشاغلتن بالنظر الى اعلان معلق فوقه عن لبن
للأطفال صناعى .. وأحسست دون أن أراه بأن بسمته اتسعت حتى كادت
تصبح ضحكته ، فتجهمت حتى لأترك له فرصة ظن سىء يشججه على
فتح فمه وعلقت عيني فى اصرار متعمد باعلان لبن الأطفال ، ورغم هذا
كله سمعته يقول لى :

• صحته طيبة .. أليست كذلك ؟ • • •

ولم أعرف عمن يتحدث ، ولا من هو طبيب الصحة المذكور .. فتظاهرت
بأن كلامه غير موجه الى ، ولكنه لم يابه بهمتى ومضى يقول :

• انهم يختارون صور أطفال أصحاء بدرجة غير عادية ليروجوا
لبنهم • • •

وعندئذ أدركت أنه كان يتحدث عن صورة الطفل التى فى اعلان
اللبن الصناعى • • • ولم يكن لدى ماأرد به عليه ، وان كنت لم أملك نفسى
فنظرت اليه فى شىء من الغيظ ، وكأنتى أقول له • عملتها • • • !
سامحك الله • • • ولم تؤثر نظرتى المغيظة على بسمته العريضة ،

فمضى يقول :

• ولكن • • • ان أردت نصيحتى فليس أفضل للطفل من لبن الأم • • •
اياك أن ترضع ابنك لبنا صناعيا أبدا • • • كان عندى ولد مرضت أمه بعد
ولادته وعجزت عن ارضاعه • • •
وأخذ يقص على قصة ما • • •

لقد انتصرت على اذن ودخل معى فى حديث • • • وأحسست بغضب
صبى انهزم فى لعبة المساكة • • • فكافحت لأتزع منه هذا النصر وأسكته
• • • فقلت فى سرعة وحدة • • •

« أنا أولاً غير متزوج .. وبالتالي ليس عندي أولاد .. ولا يعنيني
الفرق بين لبن الأم وبين اللبن الصناعي .. »

ولاحظت أنه أخذ بهذه الحدة للحظة قصيرة ، ثم جرت عيناه بسرعة
لتقما على خاتم الزواج في اصبع يدي اليسرى .. لاشك أنه أدرك الآن
أننى كاذب .. ولم أشعر بالحجل ، بل رفعت يدي اليسرى أمام عينيه
وأخذت أدير خاتم الزواج في اصبعي ونظراتي تكاد تقول « لأود التحدث
إليك ياسيدي الصفيق .. » ولست أدري ما الذى جملة يضحك فى اصرار
ويقول :

« لم تتزوج حتى الآن ؟ .. الزواج نصف الدين يا أخى .. »
أهو غبى الى هذا الحد ؟ .. ماذا أقول له ؟ .. ولكنه أقذفنى من هذا
التساؤل فقال :

« ولكنكم يا أولاد مصر لا تقبلون على الزواج مثل أبناء الريف ..
الفلاح يتزوج بمجرد بلوغه السادسة عشرة .. ويلجأون الى طيب يخدعونه
ليقدر سن الولد والبنت .. »
« ياويلتى .. قتلها لنفسى .. لقد فتح باباً آخر للحديث .. فلا سده
عليه اذن ! .. »

فقلت مقاطعاً فى سرعة :

« ياسيدي .. أنا فلاح .. ولدت .. وتربيت .. وعشت فى الريف
حتى العشرين من عمرى .. »

ونظرت اليه تلك النظرة المنيطة .. ولم أشعر الا بعد فوات الوقت
بأننى ألقبت اليه فى غباء بخيط جديد لم يتردد فى التقاطه قائلاً :

« أنت من الريف ؟ .. من أى بلد أنت ؟ .. »
وقررتى قرية نكرة .. تتبع مركزا نكرة .. ولا شك فى أنه انما
يسألنى عن المديرية فهى التى يمكن أن يعرفها .. ولكننى وجدت لذة
صيانة فى اغاضته ، فقلت :

« من عزبة الخطاف .. »

وانتظرت ليسألنى عن المركز ثم عن المديرية .. ولكنه - لدهشتى -
لم يفعل .. وانما قال فى غير اكترات :

« عزبة الخطاف .. ! تعرف اذن الحاج محمد أبو أحمد ؟ .. »

ووجدتنى أنطلع اليه لأول مرة فى اهتمام .. فقد كنت أعرف فعلا
الحاج محمد أبو أحمد ، وقلت له :

« هو عمى .. »

فقال دون اكترات أيضا :

« عملك ؟ .. انت ابن من من اخوته ؟ .. الحاج محمود ؟ أو الحاج
ابراهيم ؟ أو الحاج زهران ؟ »

فقلت له :

« أنت تعرف أعمامى كلهم ؟ .. »

كان الحاجز الذى أقمت بينى وبينه قد زال من نفسى ، ووجدتنى
أبأبدل معه الحديث فى ود واهتمام ..

وأجاب على سؤالى الأخير بسؤال جديد :

« ألا يزال ابن الحاج زهران يخرج من أثر الرصاصة .. ؟ اسمه حسين .. أليس كذلك ؟ »

« كان ابن عمي قد أصيب منذ عشر سنوات بطلق نارى فى ساقه حقا .. ولكن اسمه لم يكن حسينا .. »

فقلت له مصححا :

« فتح اقه .. ! »

« ولم يد عليه أى اكبراث بتصحيح الاسم ، وإنما مضى يقول :

« لقد وقع الحادث ألعلى .. كان الولد الحفير ينظف البندقيّة .. »
فضاء وقدر .. »

فقلت :

« طبعاً .. ! لقد كنت موجوداً أيضاً ساعة الحادث ، ولكننى لأذكر أنتى وأيتك هناك .. »

« ألا تذكر سيد أفندى عبد الحافظ السكرى ؟ .. أبوك وأعمامك يذكروننى طبعاً .. لقد نزلت ضيفاً على عمك الحاج محمد أسبوعين .. كنت أشتغل أيامها فى الطرق والكبارى .. وكان لعمك مشكلة مع المصلحة وطلب منى سعادة المدير العام أن أتولى حلها .. قال لى ان معالى الوزير اقترح اسمى شخصياً .. الوزير أيامها كان احمد باننا المرعشلى .. كانت زوجته صاحبة زوجتى وكنا نتزاور كثيراً فسويت المشكلة لصالح المصلحة .. عمك رجل نزيه .. قال لى ياسيد أفندى ياسكرى أنت رجل تحب الحق .. وأنا أحب الحق .. وعزمنى عنده أسبوعين فى عزبة الحطاف .. كنا

نخرج نسطاد البط .. بلدكم مشهورة بالبط كما تعرف .. كان عمك يقول لى ياسيد أفندى ياسكرى أنت صياد أسود لا صياد بط .. لم تخبلى طلفة واحدة .. نعم .. تعلمت الصيد مع مهندس انجليزى كان مديرا للمصلحة سنة ٢٨ .. عمك كان لا يستطيع ضبط النيشان .. أنا علمته ..

ملاحظة خارج القصة : سألت عمى فيما بعد عن سيد أفندى عبد الحافظ السكرى فقال لى : واه ماأنا فأكبر يابنى .. يجوز ! ..

عودة الى القصة : مضى سيد أفندى يقص على حكايات عن عمى وعن بلدنا .. وكان وجهه السمين قد تطلق تملأ .. خداه يترجرجان وهو يضحك ، وتجاعيده تنبسط حيناً وتدخل حيناً آخر فى مرح ، وعيناه دائماً متألفتان . ووجدتنى أضحك .. وأضحك .. بدأت أضحك مجاملاً .. ولكنى انتهيت الى ضحك صاف صادر من القلب .

ومر القطار على قرية صغيرة لا تتجاوز بيوتها تسعة أو عشرة فساتنى :
تعرف هذه العزبة ؟ ..

ولم أكن أعرفها قطما .. ولكنه كان يعرفها كما يعرف كل شئ ،
نمضى يقول :

« عين أعينها هو الجراح صالح مرتضى .. رجل طيب .. وحج أربع عشرة مرة .. قبضوا على ابنه مرة فى جريمة قتل .. قتل واحداً من البدو .. وجأبنى ولهان مفجوعاً يستغيث بى .. الحقنى ياسيد أفندى ياسكرى ، الولد فى السجن .. ومصيره الأعدام .. قلت له اهدأ يا حاج صالح واتركنى أنصرف .. وبعد أن تشبنا وشربنا الشاي قلت له نم عنسدى .. الحجره القبليه خالية .. فتم فيها ، وفى الصباح يأتى الفرج ... »

وصمت سيد افندى فجأة ، ونظر الى لحظة .. كنت قد استحللت الى
أذن مصنية وتشوق ملتهب لمعرفة ماحدث ، فمضى يقول :

« الفرج دائما يأتي مع الصباح .. أعقد المشاكل أحلها قبل شروق
الشمس .. بعد أن أصلى الفجر .. انها ساعة مفترجة .. مرة وأنا في
بلدكم قابلت رجلين على الزراعة .. »

وانتقل الى حكاية أخرى ، فقاطعه في لهفة :

« أكمل لي حكاية ابن الحاج صالح .. »

فقال في غير اكتراث :

« لاشي .. أفرج عن الولد وقيد الحادث ضد مجهول .. »

فقلت في دهشة :

« ماذا فعلت له ؟ »

فضحك في بساطة قائلا : « لاشي هام ..! أولا هربت الولد من
السجن .. »

فهتفت في دهشة أشد : « هربته ؟ وكيف ؟! »

فلوح بيده ضاحكا وقال : « والله لا أتذكر التفاصيل الآن .. المهم
ان رينا سهل وهريته .. كنت أقول لك انني قابلت اثنين على الزراعة ..
كان واحد منهما أسير طويلا .. »

ومضى في الحكاية الجديدة ، وبدأت أنا أنسأل : أقصة الحاج صالح
حقيقية ؟ وان كانت كاذبة كما اعتقد .. أكل ماقصه على الآن ككذب

فى كذب ؟ .. ولماذا يكذب على ؟ .. انه لن يكسب شيئا من هذه الأكاذيب
ونحن لسنا سوى راكبي قطار غريبن التقياء ليفترقا بعد لحظات ..

وكان سيد أفندى يحكى ويضحك .. ويضحك ويحكى .. فتعلقت
الى وجهه السمين الزجاج ، لم يكن فى عينيه المتأمتين أثر لما يمكن أن
يولده الكذب فى نفس قائله من شك وتردد أو ادعاء وتبجح .. كان يحكى
فى طلاقة .. ويضحك فى طلاقة .. أترأه لا يعرف انه يكذب ؟ .. هذا
الرجل الذى يعرف كل شيء لا يعرف أنه يكذب .. وأنه انما يعيش فى وهم
كبير ! ..

ولم أتبته الا والقطار يدخل بنا حلوان .. لقد قطعت دون أن أشعر
كل هذه المسافة التى اعتدت أن أقطعها ضجرا سائما كل يوم .. لقد مضى
الزمن دون أن أحس بوطأته .. بل ان تلك اللحظات القصارات التى أمضيتها
فى أول الرحلة مع أفكارى ، متفلسفا حول سواد الدخان ، تبدو طويلة
جدا بالنسبة الى هذا الوقت الذى أنفقته مستمعا الى أكاذيب سيد أفندى
عبد الحافظ السكرى •

وغادرنا القطار معا ، فتأبط ذراعى ، وسار يحبى كل من فى المحطة ،
يتوقف ليصافح بعضهم ، ويلوح لبعضهم الآخر ، الا أن وجهه كانت تظفر
منه السعادة فى الحالين • وفى خارج المحطة رأى طفلا صغيرا ، فأصرع
اليه يقبله • ثم دس يده فى جيبه وأخرجها بملء قبضة من الحلوى الرخيصة
أعطى الطفل واحدة منها ثم أعاد الباقي الى جيبه ، فانطلق الطفل فرحا ،
الا أن فرحة سيد أفندى كانت أكبر وهو يتأبط ذراعى قائلا :

.. هذا الولد أبوه صاحبى • .. انه يشتغل فى ..
ومضى فى حكاية جديدة لم يقدر له أن يتمها ، فقد رأى على الرصيف
صيا فى السادسة عشرة فلوح له بيده هاتفا :

« أهلا عبد الحميد .. أبوك رجع من السفر ؟ »

فقال الصبي وهو يقبل عليه مسلما :

« أنا صفوت يا عم سيد أفندى .. وأبى لم يسافر .. »

فقال سيد أفندى وهو يربت على ظهره فى حب :

« اذن سلم لى عليه ! .. »

وعاد يتأبط ذراعى قفلا :

« عبد الحميد هذا ولد ذكى .. ذكى جدا .. فى مرة جادنى ... »

وأخذ يقص حكاياته مصرا على أن اسم الصبي ليس صفوت وانما هو
عبد الحميد ..

ووصلنا أمام بيتى ، وما كاد يعرف هذه الحقيقة وحتى قطع حكاياته
وأشار الى البيت قفلا :

« أنت تسكن هنا ؟ .. هذا بيت الست توحيدة أرملة المرحوم عدلى
أفندى .. أنا أعرفه .. فى يوم وفاته .. »

وبدأ يقص حكاية عن المرحوم ، فانتهزت فرصة لحظة سكت فيها
ليلتقط أنفاسه وقلت :

« تفضل موى ياسيد أفندى .. والله تفضل تفد موى ! .. »

وفى نفس الوقت كانت كفى تهز كفه فى مصافحة سريعة ، فقال :

« عشت يا أخى .. سأزورك قطعا فى يوم قريب .. أنا ساكن هناك ... »
والتفت لبشير بذراعه نحو شارع آخر ، فرأى رجلا يحييه من بعيد
فصاح به :

« أهلا سى فرحات .. انتظر .. خذنى معك .. »

والتفت الى قاتلا فى سرعة :

« أزورك قطعا ذات يوم .. سلم لى على عمك الحاج محمد .. »

وانطلق نحو رفيق الطريق الجديد فى خفة ونشاط أحسده عليهما ..
أنا الذى أصغره بشرين سنة الا قليلا ..

وعلى مائدة الغداء بدأت زوجتى تقول :

« ست عزيزة جارتنا أرسلت تقترض المفرومة من ست جمالات .. »

ونظرت الى وجه زوجتى ، فرأيت فى عينيها نظرة متألقة تألق نظرة
سيد أفندى السكرى .. لماذا أظلم وحدى كئيبا ضيق الصدر ؟ .. لماذا
تخبو نظرات عيني أنا وحدى على مر الزمان ؟ .. نعم لماذا ؟ ! ..

والتفت الى زوجتى وبدأت أضحك وأقول :

« تصورى .. استدعانى المدير العام اليوم وقال لى ياسعيد .. انت
خلال العقد .. سيادة الوزير طلب منى أن أكلفك شخصيا بأن تدرس
هذا التقرير وتستخلص منه .. »

ووجدتني أصمت فجأة وأقطع ضسحتنى .. وتطلعت زوجتى الى
بينيها تنتظر بقية الحكاية .. ولكننى كنت عاجزا عن اتمامها .. فانصرفت
الى لقمة ألوكها فى فمى بطيئا متاخلا ..

لا .. لا أستطيع .. اتنى أعرف أتنى أكذب .. أما سيد أفندى

السكرى فهو لا يعرف أنه يكذب .. انه مقتنع تماما بينه وبين نفسه بأنه
الرجل الذى يعرف كل شيء .. والذى يفعل كل شيء .. وأن الأرض
ستكف عن الدوران ان فقدته .. أما أنا .. فالحقيقة تكبلنى بأغلال تموق
فراى .. وتلقينى مقيدا عاجزا أمام الزمان ينث فى نفسى من سواده طبقة
فوق طبقة ! ..

الملوك والكهنة

كنت أراه كل ليلة وأنا جالس تحت أضواء (النيون) التي تسطع في أرجاء المقهى وخارجه ، كان يدلف من الباب الزجاجي وعلى رأسه صينية من الخشب منقطة بخرقة من القماش الأبيض وفي يمينه حامل من الخشب أيضا ، ثم يطوف بين المناضد الرخامية متاديا في صوت هادي وقور (الكبد) يقولها مرة واحدة بجوار كل جماعة ولا يكررها ثم يدلف خارجا في خطو حتمهل وادع •

لم يكن بالما عاديا من هؤلاء الباعة الذين يملأون المقاهي في القاهرة فقد كان طويل القامة عريض المنكبين ، نضحيته بنظرة قائمة راضية ، وترتع جبهته عالية في قمة واطمئنان . وكان حول وجهه لحية مهذبة تنهى أسفل ذقنه بزواية مدببة ، تهتز مرة خفيفة كلما حرك فكيه لينادي في هدوء ووقار (الكبد ..) وكان الى هذا نظيفا في أنفاة ، يسربل بجلباب أبيض ناصع البياض كأنما غادر المضلة في التو .. سواء رأته في أول المساء أو في أول السهرة أو في نهايتها ، وعلى رأسه علامة صغيرة رشيقة .. هي طاق من نفس القماش الأبيض ، ملفوف في عنابة على طاقة بيضاء ، وفي قدميه نعلان من المطاط الأبيض يحرس على أن يجنبهما أقدار الطريق ورذاذ الطين . كان كثة من البياض تتناسب مع تلك النظرات البريئة العميقة التي تشع من عينين ضيقتين فوقهما حاجبان كثيفان من الشعر الأسود . على أن أكثر ما لفت نظري اليه هو تلك الصينية الخشبية التي يحملها فوق رأسه ، كانت قرصا مستديرا له حافة عريضة ، مثلها كمثل أية صينية لأي بائع متجول ، إلا أنها كانت تتميز بخلوها من بقايا الشحم والزيت التي لا تخلو منها صوانئ غيره من البائعين ، وكانت مطلية بطلاء أبيض لامع عليه كتابة سوداء بخط جميل

منسق (كبابجي الحسين .. أبو الذهب) وكان هذا يشغل نصف الدائرة
وعلى النصف الآخر آية قرآنية هي (وأما نعمة ربك فحدث) مكتوبة
بخط فارسي متأنق يلعب زاهيا بلونه الأحمر فوق السطح الأبيض .

وكتبت كثيرا ما لأتاديه ، وأطلب منه أن يمد لي شطيرة ، فيفتح الحامل
الحشبي على الأرض في تؤدة ، ويضع قوفه الصينية . ويرفع عنها الحرقعة
البيضاء فما يكاد يدعو تحتها من طعام حتى يهتف من أعماقه :

- صل على النبي ! -

ثم يبدأ في اعداد الشطيرة التي طلبتها بطريقة تستشف منها أنه فنان
يعشق هذا العمل ويتر به ، فأنامله تلتقط الكبد المحمرة كما يلتقط
البناتي زهرة يقتطفها ، ثم ينظر إليها في عشق كما تنظر الأم الى وحدها
ثم يوسدها شقي الرقيق كجوهري يوسد ماسة في حرير ، ويسسوي
أطرافها ، ثم يقدمها الى صاحبة مرة أخرى :

- يا بركة الحسين .. !

وقلت له مرة وأنا أشير الى حافة الصينية البيضاء :

- يا فضلة دى عاجباني قوى يا أبو الذهب ..

فأجاب وأصابه تملع في الشطيرة :

- أmaal .. لازم الواحد يكون نصف ، علشان لا مؤاخذه ده أكل .

- اتما يعني مالتيشن حاجة تكتبها غير دى ! ..

فقال وهو لا يزال منصرفا الى الشطيرة :

- وأما نعمة ربك فحدث ؟ دى آية شريفة ! ..

- ما أنا عارف .. بس فين هي النعمة دى ؟ ..

فكتف أصابعه عن العمل في الشطيرة ، ونظر الى في حدة وهو يقول :

- أستغفر الله العظيم .. بقي الصينية دى مش نعمة !

فأردت أن أمضى فى عبثى معه فقلت :

- ليه ؟ تقولش محل الحاتى يعنى !

- سبحان الله يا أستاذ .. دى مش بتجيب رزقى ورزق العيال ؟! ..

- وهو ده اسمه رزق ..!؟ .. آمال اللى يكسبه واحد زى عبود

يبقى اسمه ايه ؟! ..

نظرت الى نظرة سريعة حادة ثم ناولتى الشطيرة دون أن يجيب ،

وأسرعت فحمل الصينية على رأسه وطوى الحامل الخشب وعلقه فى ذراعه

ثم مضى يطوف بالناسد مناديا :

- الكبد ! ..

ولاحظت أن صوته قد ارتفع قليلا عن المألوف ، وحالطته رعشة

كأنه مازال منفغلا من تعليقاتي الجاحد .

وانقضت شهور طويلة ، ثم فوجئت ذات ليلة حين رأيت (أبو الذهب)

يقبل نحو المقهى وهو يدفع أمامه عربة من الخشب . كانت العربة جميلة

ورغم صغرها ، فقد طلائها كلها باللون الأبيض الناصع ، حتى المجتازان

أصابعهما حظ كبير من الطلاء اللامع ، وغطى أعلاهما بألواح من الزجاج

(شفاف يتألا) بينها (كلوب) يرسل ضوءا ساطعا يشع جزءا من الشارع ،

وفر منتصف العربة موقد غازى من النحاس الأصفر البراق يرسل لهبه

تحت صينية مستديرة ملئت الى منتصفها بالزيت ، ويجوارها حينية أخرى

عليها الكبد والكلاوى والسجق . على أن أبا الذهب لم يمس أن يزبن

جدران العربة بالكتابة ، ففى الصدر كتب بخط كبير (كياجى الحسين -

أبو الذهب) وتحت هذا كتب بخط احمر مزخرف (ولما ينعمة ربك

فحدث) . كانت هذه هي نفس العيارات التى كتبت فوق حافة الصينية

الخشبية ، ونقلها أبو الذهب - بعد تكبيرها الى صدر العربة ، ثم أضاف

اليها كتابات جديدة ، فعل أحد جانبى العربية (هذا من فضل ربي) وعلى
الجانب الآخر (ولئن شكرتم لأزيدنكم) هذا الى جانب اسماء الحلفاء
الراشدين الاربعة التى كتبها فى أركان العربية الاربعة .

وترك أبو الذهب عربته على باب المتهى ودخل يطوف بالموائد منادية
فى صوته الوقور :

- الكبد ! ..

فناديته وهنأته بالعربة قائلا :

- مبروك العربة يا أبو الذهب ! .. أهى دى اللى اسمها نعمة
بصحيح ..

فقال وهو يتطلع اليها فى حنان :

- أمال يا أستاذ ! .. دى عروسة .. أنا مسميها العروسة وهى
عروسة ..

والحق أن العربة كانت كالعروس فى ثياب الزفاف البيضاء .. ترى كم
دفع فيها ؟ وكم ليلة حلم بها ؟ وكم من مرة حرم نفسه وأولاده الطعام كى
يقصد ثمنها ؟ ! ..

وبينما كنت مساجعا فى الأسئلة أقبلت سيارة نقل
مسرعة ، وكانت أرض الشارع مليئة بالحفر التى تجمّع فيها ماء قدر ،
فتطاير رذاذ من الطين لوّث العربة ، فترك أبو الذهب المتهى مسرعا واخذ
يمسح الطين وهو يقول متغلا :

- ملهش يا عروسة .. ! ما زعليش .. ! أصل السواق أعمى ..
وهو أنا يخلصنى توتسى ١٩ ..

وهكذا ألفت أن أرى (أبو الذهب) كل ليلة يدفع أمامه هذ
العربة الجميلة تصدعها الآبة الكريمة (وأما بنمة ربك فحدث) .

الى أن كان يوم ...

كانت الساعة قد جلوزت العاشرة مساءً ، وكان الصيف يطرق الابواب فيدفع الناس الى القرار من المنازل الى المقاهى ، وكان المقهى حافلا بالرواد .. أكثرهم يحتلون الناضد المصفوفة على الرصيف أمام المقهى والآخرون يزدهمون داخل المقهى ، والجميع فى لفظ وضجيج .. كنت لا أسمع الا (شيش يش ديش .. اتنين على الريحة .. الخ ..) ووسط هذا الضجيج ارتفع صوت (أبو الذهب) ناديا فى لهجته المأثورة :
- الكبد .. !

وناداه كثير من رواد المقهى وطلبوا منه اعداد أكثر من خمس عشرة شطيرة . وكانت صفقة لا تكرر الا مرات قليلة فى العمر . فانطلق (أبو الذهب) الى عربته التى تقف أمام المقهى وزاد من لهب الموقد الغازى . وأخذ يشوى اللحم فى حماسة ، ولكن لهب الموقد لم يعضه على شئ كل ماطلب منه . وصاح به بعض الزبائن يتمجلونه فصاد يزيد من اللهب . وفجأة انفجر الموقد الغازى داخل العربة . واندلعت ألسنة اللهب فيها . وانسكب الزيت المشتعل من الصينية وسالت على جوانب العربة يحمل اليها اللهب والدمار ..

حدث كل هذا فجأة ، فلم يتبه رواد المقهى الا عندما رأوا ألسنة اللهب تتعالى أمامهم والعربة بين فكيفها . فأسرع الجميع اليها . ووقف أبو الذهب ذاهلا واجما لم يصرخ ولم يك .. وانما وقف كالصنم يحدق فى العربة وهى تذهب قطعة للثان ..

وأحاط الناس بالعربة ، وسمى بعضهم يحمل الماد من المقهى لاطفاء الموقد المنفجر . وصاح واحد ممن يكافحون النيران ..

- مايش فائدة يا جدهان .. ! النار شديدة قوى علينا .. اطلبوا المطافى .

وقال آخر :

- دا على مانيجى المطفى تكون العريسة بقت تراب !! عوضك
على الله يا أبو الذهب •

وكانما بشت هذه العبارة بالحياة الى (أبو الذهب) الذى حولته الكارثة
الى صنم فصرخ فى جنون :

- آه •• يا عروسة ••

ثم اندفع الى كتلة اللهب التى تلفت بالعربة وألقى بنفسه فوقه ،
وعندما جذبه الناس بعيدا ، كانت النار قد علقت فى ثيابه ، وغطى الزيت
المتشعل وجهه ويديه •

وانقضت شهور لم يظهر خلالها أبو الذهب فى المقهى ، وكادت اسماه
وأسى عروسه والكارثة التى حلت بها ، وأقبل الشتاء ببرده وامطاره ، وفى
احدى الليالى الباردة كنت أجلس داخل المقهى أدخن النارجيلة واستمتع
بالدفء اللذيذ الذى يشيع بين ابواب المقهى المنطقه عندما أحسست بتيار من
الهواء البارد يسفح ظهري ، فأدركت أن أحدهم قد فتح الباب ، وقبل أن
التفت اليه سمعت صوتا مألوفا يطرق سمعى قائلا فى هدوء ووقار :
- الكبة !!••

فقطعت فى دهشة لا أرى (أبو الذهب) أمامى •• بلا لحية وبلا بشرة
وجبه مغطى بقطعة من الجلد المحترق •• وكفاه كتلتان من اللحم الاحمر ••
وفى يمينه الحامل الحشبي • وعلى رأسه الصنية القديمة •• نظيفة كما
كانت • لم يتغير فيها شيء ، اللهم إلا الكتابة التى كانت على حافتها العريضة
(وأما بنعمة ربك فحدث) فقد حلت محلها آية أخرى شغلت الدائرة كلها
(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتمزق
من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير أنت على كل شيء قدير) ••

المغفل

ما ان جلست الى المقهى القذر حتى واجهتنى لائحة على الرصيف
المقابل كتب عليها بخط باهت (معلم الطلبة لصاحبه الحاج محمد الحدق)
وما كدت أقرأ الاسم حتى ايسمت وهمست لنفسى (الحاج محمد المغفل) فهذا
هو الاسم الذى كانت جماعتنا تطلقه عليه أيام كنا نساكن فى هذا الشارع منذ
ثلاث سنوات ، كنا أربعة نساكن فى شقة واحدة ، اخوان يحتلان غرفة ،
وأنا وزميل لى نشغل غرفة أخرى . وكان زميلى فى الغرفة يدعى
عبد البصير ، وهو زميل لى فى الدراسة أيضا اذ كنا طلبة فى كلية الحقوق ،
وكان نحيا قصيرا نلعب فى وجهه بصمات الانيميا الشديدة الناتجة عن سوء
التغذية . والحق أنه كان يعيش بطريقة بهلوانية تعتمد الى حد كبير على
معلم الحاج محمد الحدق .

كان أبوه - وهو مزارع فقير فى الريف - يرسل له فى كل شهر
جنيهين ، يدفع منهما ثمانين قرشا ليجار مسكنه ، ويدبر حياته بالباقى على
قلته ، كان لا يدخن ؟ ولم أضبطه مرة متلبسا بدخول السينما أو بمعاملة
بوفيه الكلية ، ولكننى كنت واقفا -بحكم تجربتى- أن مائة وعشرين قرشا
لا يمكن أن تكفيه أكثر من أسبوعين ؟ ولكنه كان يعيش بقية الشهر بفضل
الحاج محمد الحدق هذا الذى اكتشفه مصادفة ، ولكنه استغله الى أقصى
حدود الاستغلال .

فقد دخل المطعم مرة ، وطلب طبقا من الفول ورغيفين ؟ واجتهد فى
أن يأكل طبق الفول بالرغيفين مما حتى يستثنى بهذه الاكلة عن وجبة
العشاء ، ثم قام ليدفع ثمن ما أكل الى الحاج محمد الحدق الرابض على

منصته الخشبية بجوار الباب ، وكان هناك ثلاثة زبائن غيره يدفعون حسابهم؟
فناول الحاج ورقة بخمسة قروش وهو يقول :

- خمسة تعريفة يا حاج ..

ولكن الحاج وضع الورقة فى الدرج أمامه وأهمله فترة انصرفه
خلالها للزبائن الثلاثة الذين يحاسبهم حتى فرغ منهم ، ثم التفت الى عبد
البصير وأطال النظر اليه ، وأخذ يتحسس لحية الحمراء قبل أن يقول :

- قلت لى كام يابنى ؟

- خمسة تعريفة يا حاج ؟

- آه حاضر .. من عنيه !

ومد يده فى الدرج ليخرج الباقي ، ولكنه أطارق مفكرا ثم نظر الى
عبد البصير ثانية وقال :

- خمسة تعريفة .. مش كده ؟

- أيوه يا حاج ..

فمد يده الى عبد البصير وكان فيها سبعة قروش ونصف .. ! ..
فقال عبد البصير :

- دول كام يا حاج ؟

- سبعة ونص .. انت مش ادتى نص ريال ؟

وأحس عبد البصير بضميره يريد أن ينفو .. ولكنه قاوم الاغراء
وقال :

- لا يا حاج .. أنا اديتك شلن مافيش غيره .. انت غلطان !

ولكن الحاج قال فى لصراخ :

- استغفر الله العظيم ... ! وأذكر ربك اذا نسيت ... انت يابنى الى
غلطان ... أنا عارف انك ادبتي نهر ريال ... ابقى خذ ذلك من فلوسك
... مع السلامة يابنى ... !!

وكان الاغراء هذه المرة أكبر من أن يقاومه عبد البصير ، فترك
ضميره ينفو كما يشاء ، وغادر المطعم .

وفى الليل عندما قص على جماعتنا القصة ضحكنا كثيرا ، وقال أحد
الاخوين مقبلا :

- الرجل لازم غلط بينك وبين زبون تانى ... !

ولكن عندما ذهب عبد البصير الى المطعم فى اليوم الثانى عاد ليقول لنا
ان الحاج محمد الحدق قد غلط أيضا هذه المرة ، فقال أحد الاخوين :

- لازم الرجل مغفل بقى ... !!

ومن ساعتها اطلقنا عليه لقب (المغفل) بدلا من (الحدق) .

تذكرت كل هذا عندما طالعنى اللافنة وأنا جالس فى المقهى القدر،
وثارت أمامى ذكريات التلمذة ، وما كان فيها من عبث ومرح ومرارة وجوع
... فأحسست برغبة عارمة تدفعنى نحو (مطعم انظلية نصاحبه الحاج محمد
الحدق) فقممت اليه وجلست الى احدى الموائد الخشبية التى اكتست بطبقة
غبراء من التراب المعجون بالزيت ، وطلبت الفول والخبز كما كنت أفعل
أيام التلمذة ، وأخذت أكل شهية مفتوحة رغم أننى كنت قد الفت المطاعم
الانيقة فى الستين الماضيتين منذ تخرجى . ولكن هذا المطعم القدر كان جزءا
من ماضى .. رائحته المميزة بالزيت والطعمية .. ومقاعد الخشبية الخشنة ...

وكيزان الماء الصفح الرصوة على الموائد .. كل هذا كان قد امتزج
بدمى خلال السنوات الأربع التى أمضيتها طالبا فى الجامعة ..

وكان الحاج محمد الحديق يجلس الى منتهى الحشوية بجانب الباب لم
يغير منه الزمن شيئا ، فهو مازال نفس الرجل الرخصة ذى العينين
العشواوين واللحية الحمراء والمعامة البيضاء التى تتدلى منها ذؤابة قصيرة
على قفاه ، وكان على وجهه نفس الوضاعة والسماحة التى كانت فى نظر
الكثيرين - ومنهم عبد البصير وأنا - مظهرا للسذاجة .

وأطلت النظر الى الحاج وهو يفتح الدرج ليضع فيه أو ليخرج منه
تقودا ثم يفتح الدفتر الذى أمامه وينظر فيه فترة اذا كان الزبون ممن لهم
حساب مفتوح ، ونظر الحاج فى أرجاء المطعم يتفحص الزبائن فالتقت عينانا
وعندئذ وقفت نظراته على فترة كأنما يحمل وجهى اليه بعض الذكريات ،
ثم ابتسم لى فصحت من منضدى :

- كيف الاحوال يا حاج ؟

فازدادت بسمته اتساعا وصاح بى :

- مرحبا .. ازيك ياراجل .. ؟

ثم عاد الى النظر فى دفتره الكبير ، وعدت أنا الى طمايى ، وتذكرت
قصة أخرى حدثت بين عبد البصير والحاج محمد الحديق . كان ذلك قبل
امتحان الليسانس بشهور ، فقد دخل عبد البصير المطعم وأكل ولما تقدم
ليدفع حسابه للحاج فوق المنضدة أخرج ورقة بخمسين قرشا ، فتناولها
الحاج وقلبها بين أصابعه ثم سأله :

- ما معكش فكرة يا بنى ؟

- ما معيش غبرها يا حاج .. لافكة ولا صحيح ..

فنظر الحاج اليه لحظة متفحصا ثم قال :

- أنا ماعنديش فكة .. خليا معايا .. وابقى فوت مرة ثانية .

- لكن أنا مامعيش غيرها ..

- يلزمك كام فكة لحد الصبح ؟

- نص ريال .

فأعطاه الحاج نصف ريال وهو يقول :

- يبقى لك أربعين قرش .. انت مش مستأمنى ... ؟

- الغو يا حاج !!

وخرج عبد البصير وجاء الينا يقص علينا القصة فضحكنا وقال أحد
الأخوين :

- اياك الحاج ينسى زى عادته ويروح عليك الاربعين قرش ...

فقال الأخ الثانى وهو يغالب ضحكاته :

- يبقى عوض الى خدته منه بكش .. !

وأمضى عبد البصير ليلة فلكة ، وأمضينا نحن ليلة ضاحكة ، وما كاد
الصباح تبدو شمسهِ فى الشرق حتى انطلق عبد البصير الى المطعم ليفطر
ويحصل على القروش الاربعين التى هى رأس ماله الى آخر الشهر ولكن
لم يقدر له أن يأخذ الباقي ، فعندما فرغ من التهام طبق الفول وأسرع الى
المنصة ليطلب الباقي بادره الحاج قائلا :

- لسه يا بنى الفكة ماجتش ... انت كلت بكام ... ؟

- بقرشين ...

- طيب مع السلامة ..

وتشاغل الحاج بالنظر فى دفتر الحسب الذى أمامه ، فوقف عبد
البصير مرتبكاً وقال فى اضطراب :

- لكن .. يا حاج .. !

فقاطعه الحاج قائلاً :

- انت ايه يا بنى ؟ .. مستخونى ؟ !

- المفو يا حاج .. ! لكن ..

- لكن ايه ؟ .. أنا حاقيدهم فى الدفتر أهه اذا كنت خايف ...

وامسك الحاج بالقلم وشرع يكتب فى صفحة جديدة (حسب نبد
البصير افندى) فقال عبد البصير :

- بس انا عايز فلوس .. !

فرفع رأسه عن الدفتر ونظر اليه فى دهشة قائلاً :

- انت خلصت النص ريال بتاع امبارح ؟ .. عاوز كمال .. ؟

وهكذا أخذ عبد البصير خمسة قروش أخرى وانصرف . وتكرهذا
كل يوم ، فالحاج ليس عنده فكه ، وعبد البصير يأكل يومياً ويأخذ قروشاً
لمصروفه ، والحاج يقيد ذلك فى دفتره خصماً من القروش الاربعين ، حتى
رأى عبد البصير أنه قد استهلك المبلغ كله ، فأكل مرة ثم تقدم الى الحاج
وأخرج قروشاً دفعها اليه ثمناً لما أكل ، ولكن الحاج نظر اليه طويلاً وهو
يتخلل لحيته الحمراء بأصابعه ثم قال :

- انت لسه لك فلوس عندى يا بنى ...

- مش مقول يا حاج .. ؟!

- يا ابني الدقر ما يفلطش ... له لك ثلاثة وعشرين قرش ...
عاوزني أكل فلوس حرام .. ؟ استغفر الله .. !

وظل عبد البصير يأكل طول الشهر والمبلغ لا ينفد .. وضمير عبد
البصير لا يصحو .. والحاج محمد المفل لا يتنبه ..
وفي أول الشهر التالي قال الحاج لعبد البصير :

- ايه رأيك يا ابني .. ما تجيب خمسين قرش أمشي بها شغل ..
واديك بتاكل منها لحد ما تخلص ..
ولم يكن أحب الى عبد البصير من هذا الاقتراح .. فنفذه طسول
العالم الدرامى ..

* * *

تذكرت كل هذا وأنا أتناول الفول وأخذت أنظر الى الحاج وهو
يقلب فى الدقر أمامه ، وابسمت .. كان أكبر مفل فى نظري .. ! وعندما
تقدمت الى منصفه لأدفع الحساب تخفل لحيته الحمراء بأصابعه وابسم ثم
سألنى :

- ازى صاحبك عبد البصير ؟ ... ؟

- انت فاكّر يا حاج .. ؟

- وحد ينسى يا ابني .. ؟ دا اتم أولادى .. ! هو اشتغل والا
له .. ؟

- دا بقى محامى كبير ... !

- طيب لما تشوفه قول له عمك الحاج محمد الحديق يسلم عليك
ويقول لك ان له عندك سبعة جنيه ونص ...

فتفتحت فمى فى دهشة وقلت :

- بتوع ايه يا حاج ؟

- كان بياكل بيهم !

- شكك ؟

- هو مايرفض انهم شكك ... أنا كنت بأغسله فى الحساب ..

هو معذور الى ماجابهومش لحد دلوقت !

ثم ابتسم وأطرق الى الأرض وعاد يبت بلحيته الحمراء ومضى

يقول :

- أصله كان غلبان قوى .. كان باين عليه مش لاقى ياكل ويتعلم

مع بعض ، فقلت أأكله من غير مأجرح احساسه .. علشان يعرف

يتعلم ويبقى بنى آدم ..

ثم تطلع الى بعينين عشاوين واكسى وجهه ذكرى ألم قديم ...

وهمس :

- زمان .. زمان قوى .. كنت مجاور فى الازهر ومافلحتش ..

علشان ماكتش لاقى أكل .. حتى الجراية اللى كانوا بيدوها لى كنت

بأحوش نصها وأذيه لابويا وامى ... ياسلام .. كان زمانى دلوقتى

شيخ فى جامع ولا قاضى شرعى .

وساد صمت عميق .. كانت عيوننا هى اللى تتحدث وتفاهم ..

وفجأة تبددت من وجهه ذكرى المأساة القديمة وعاد صوته يملو قاتلا فى

صلابة :

- ماتساش تقول له يا بنى .. حرام عليه ياكل المبلغ ده عليه .. مع

السلامة ... !

حضرة المفتي

- مفتش ..

همس بها الخادم الحاصل بحجرة حضرة الناظر فى أذن خليل الفرائس
وهو يتناول منه صينية القهوة ، فسأل هذا هاسا :

- مفتش ايه ؟

- عربى

فأسرع خليل وبلغ الانذار الى الرئيس درويش كبير الخدم فى مقر
قيادته تحت السلم ، ولم يضع الرئيس درويش لحظة واحدة ، فنادى
مساعدته وأمره بالمرور على مدرسى اللغة العربية فى الفصول وتبليغهم
الانذار ، ولم تمض دقائق حتى سرت حركة نشيطة مفاجئة فى المدرسة،
فكان أربعة من المدرسين ينظفون السبورات فى وقت واحد ، ثم يلقون الى
التلاميذ بتعليماتهم .. انت غيبى فاجلس فى آخر الحجرة .. وانت لم
تحفظ المحفوظات فاخرج واختف فى دورة المياه .. ثم بدأت الحركة
النشيطة تسرى الى الاصوات ، فانطلقت كلها فى وقت واحد تجلجل فى
أرجاء المدرسة ؟

- واجب النصب على الامتثناء

- قالت الارنب لجماعة الوحوش

- وما أنا ممن تأسر الخبز له ..

وصالت هذه الاصوات مسمى الرئيس درويش فى مقر قيادته

تحت السلم فاطمأن الى أن انذاره بلغ الى جميع المدرسين .. فقتل شاربيه
فى سرور واعتزاز وعاد الى مقعده الخشبى ..

وفجأة .. فتح باب فى أقصى الردهة المظلمة .. وأطل رأس نحيل
أصلع .. عرف فيه الرئيس درويش رأس السعداوى افتدى .. فهب
مسرعاً اليه .. وهمس فى أذنه :

- فيه مفتش :

فأطرق السعداوى افتدى الى الارض وهمس :

- هات اسبرينه وكباية ميه ..

- بأقول لحضرتك فيه مفتش .. مفتش .. !

- أيوه ياأخى .. عرفنا ..! بس ابنت الاسبرين والميه .. دماغى

بتوجنى ..

كان الاستاذ السعداوى عملاقاً فى الأربعين من عمره ، ولكنه كان
وديعاً لطيفاً .. أحب التلاميذ نظراته المعطوفة وصوته الهادى الحازم
... وطربوشه الذى يدفعه دائماً الى الخلف فيكشف عن رأس يتأزعجها
الصلع والشييب ، كان يذكرهم بأبائهم فأجوبوا كما يجبونهم .. وكان
ناظر المدرسة يحبه لأنه لم يناقشه مرة واحدة خلال السنوات التى عمل
فيها تحت رئاسته ، أما المدرسون والخدم فكانوا يحبونه أيضاً ، وان انقسموا
حواله فريقين .. أحدهما يتوق بطيبته الوداعة .. والاخر يشفق عليه
ويرثى له لهذه الطيبة المستكنة ، على أن الجميع كانوا يلمحون فى حياته
ظلالاً مأساة خفية لم يتحققوها .. وان ردها بعضهم الى أنه ظل متزوجاً
خمس عشرة عاماً لم ينبج خلالها الامنذ سبعة أشهر .. عندما رزق بابنه
الوحيد عبد الحى .. ويدللون على رأيهم هذا بذلك التحول الذى طرأ

عليه منذ الحين .. فقد أصبح وكأنما ارتدت اليه حيويته .. فعاد الى عينيه بريقهما .. والى قامته استقامتها .. والى شفتيه بسمة ثقة وأمل غير تلك البسمة اليائسة المستسلمة التي كانت تكسوهما دائما .

وعندما عاد اليه الرئيس درويش بالأسبرين والماء .. تناولهما شاكرًا ثم سأله :

- مغيث حد سأل على في التليفون ؟ ..

فهز درويش رأسه نافيًا : فقال السعداوى :

- قول لحضرة الناظر يمت لي أول التليفون ما يطلبني ..

ثم أغلق عليه باب الفصل واجما كما فتحه .. كان التسلايميد في الفصل هادئين مكبيين على كراساتهم يكتبون موضوعا انشائيًا في صمت .. ولكن أحدهم رفع رأسه وقال له :

- سلامتك يا أستاذ ...

- الله يسلمك يا ابني .. فيه عندكم مفتش .. جايز يجي دلوقت فاتبه التلاميذ وكفوا عن الكتابة وسرى لفظ يشهم :

- مفتش .. ؟ فيه مفتش .. الاستاذ يقول فيه مفتش .

فقال السعداوى أفندي في حزم :

-كملوا موضوعكم .. دي حاجة مالكوش دعوة بيها .. جيخش بئلكم كلمتين ويطلع .. آتم طبعًا مذاكرين .. ؟

- طبعًا يا أستاذ ...

قالوا جميعًا .. فاطمأن السعداوى أفندي وقال :

- خلاص .. خلصوا الموضوع الى بكتوبه ..

ثم عاد الى مقعده واجما سامعاه وجلس ينظر الى التلاميذ وهله ، ثم انصرف عنهم الى نومه بعيد عن المدرسة والتلاميذ كل البعد .. انه ابنه عبد الحى .. دلت ابويده على انه يقطع من مراحل العمر الا سبعة شهور .. ثم هاجمه مرض خطر يوشك ان يرغمه على التخلص من بقية مراحل العمر .. فقد سهر طوال الليل مع زوجته بجانب فراشه .. لم يراود الكرى جفنيه لحظة واحدة .. ثم تركه فى الصباح لرعاية زوجته ورحمة ربه .. وجاء الى المدرسة ليحدث التلاميذ عن المبتدا المرفوع بالابتداء والخبر المرفوع بالمبتدا .. ولكن السهر الطويل خلال الليل ، وانعكس المر على حياة ابنه أعجزاه عن حديث المبتدا والخبر .. فكتب عنوانا للموضوع انشائي .. وطلب من التلاميذ ان يكتبوا فيه .. وبذلك اتاح لنفسه فراغا يخلو فيه الى نفسه ويفكر فى ابنه عبد الحى .. لو مات هذا الوليد لكان ذلك كارثة لا تحتمل .. فقد أمضى تسع سنوات متزوجا ولم ينجب حتى تقطع قلبه حسرة وألما .. ثم رزقه الله بهذا الغلام منذ سبعة أشهر .. فهل يحرمه الموت منه .. ؟ أليست كارثة لا تحتمل .. ؟ لاشك فى أنه لن يموت ... ! والا .. فلماذا رزقه الله به ان كان يريد أن يتزعه منه ولما يزل وليدا .. ؟ لاشك فى أنه سيعيش ، وسيكبر ، سيدخله المدرسة ويرعاه حتى يصبح طيبا .. أو يصبح مهندسا .. ؟ .. أيهما أفضل ... ؟

- يا أستاذ ..

واتبه السعداوى أفندى مذعورا .. فاذا بتلميذ يقف أمامه فى أدب .

- نعم .. ؟ عاوز حاجة يالبنى .. ؟

- حضرتك بتنام .. وباين عليك تعبان .. اتفضل استرح فى أودة

المدرسين واحنا نقعد ساكين لحذ الجرس ما يضرب ..

وهم السعداوى أفندى بأن يثور .. ولكن التلميذ كان ينظر اليه في حب وعطف جلاء يخجل من الثورة : فريت كفه وهو يقول :

- معلى يابى • أقعد عشان المفتش جايز يجي ••

- لكن حضرتك تعبان قوى •• لازم تأخذ أجازة ••

- معلى ••• معلى ••

وعاد الصبى الى مقعده • وأخذ السعداوى أفندى يفكر فى اقتراح الصبى •• لماذا لم ياخذ أجازة •• ؟ لقد فضل فى أول الصباح أن يحضر الى المدرسة فرارا من منظر ابنه وهو يتلوى ألما ويسجز عن التعبير عن ألمه الا بصراخ محتق •• ولكنه أصبح الآن اشد قلقا عليه •• أترامات؟ ربما ••• ! ولكن •• لقد طلب من زوجته ان تتصل به نيفونيا ان حدث شئ •• وهى لم تتصل به بعد •• فسلاد أنه لم يمت •• ولا يزال يتلوى من الألم •• ويصرخ ذلك انصراخ المحتق •• لابد أن يراه •• لابد أن يذهب اليه •• سيطلب اجازة ويغادر المدرسة بعد انتهاء هذه الحصة ••• ولكن حضرة المفتش موجود ••• وقد يهرقل وجوده الاجازة •• لا •• لن يعترض على خروجه •• فهو انسان وله أولاد •• ثم انه رجل طيب عرفه فى السنوات الماضية التى فتش فيها عليه وهو يفهمه ويقدره •• لا •• لن يعترض على الاجازة •• لماذا لا يطلبها الآن ؟ لماذا ينتظر انتهاء الحصة بعد نصف ساعة •• وقد يموت ابنه خلال هذا الوقت •• ينبغي أن يخرج الآن •• سيذهب الى حضرة الناظر ويخبره أن ابنه •••

وقطع عليه أفكاره طريقة غنية على الباب •• ثم انفتح الباب على مصراعيه ووقف على عتبة رجل لم يسبق للسعداوى أن رآه من قبل •• كان قصيرا نحىلا •• هضم الوجه أحمر البشرة والشعر •• يقتل شاربيه الى أعلى ويلبس طربوشا قاتى الحمة طويلا شديد الطول •• وسترة ضيقة

تحت الصدر .. وسروالا ضيقا حول اساقين ، وقف بالباب يحملق في
بعينين ضيقتين عابستين فوقهما منظار زجاجي رخيص ، وقد أشهر في
يمناه قلما طويلا من الرصاص وفي يسراه (نوتة) صغيرة سوداء .

لم يكن هو المفتش الذى يعرفه السعداوى ، ولكن القلم والنوتة
المصوبين الى وجهه قطعما عليه كل شك .. فهب من مقدمه كاللصوع ،
وصاح بالتلاميذ :

- قيام .. !

وأسرع يستقبل حضرة المفتش محيا :

- أهلا وسهلا .. أفضل .. أفضل .. أهلا وسهلا .

ولكن حضرة المفتش لم يتفضل .. وانما ظل واقفا بالباب يستعرض
التلاميذ الواقفين في انتظار أمر يصدر لهم بالجلوس ، ومد السعداوى
افدى يده .. فصافحه حضرة المفتش دون أن ينظر اليه .. كانت عيناه
معلقتين بتلميذ يقف فى آخر الفصل .. وكأنما لم يحبه شيء فى التلميذ
فاختطف أصابعه من يد السعداوى افدى .. ثم صوب القلم نحو هذا
التلميذ وهو يصيح به :

- يا ولد .. قف متدلا .. انفخ صدرك .. ! ارفع رأسك !

ونظر التلاميذ بعضهم الى بعض فى دهشة .. كان حضرة المفتش
موزجا غريبا عليهم .. فهم قد رأوا كثيرا من المفتشين من قبل ، وكانوا
يتفاوتون بين وداعة الارنب وجفوة الذئب ، ولكن لم يكن بينهم قط طاووس
كهذا الذى يقف أمامهم .. وهمس أحدهم :

- هو مفتش عربى والا ألعاب ؟

فُسرت ضحكات خافئة بين التلاميذ .. وكان السعداوى افسدى
يعرفهم حق المعرفة .. فهم لا يوقرون من لا يعجبهم .. من الواضح أن
حضرة المفتش لم يعجبهم .. فخطى السعداوى أن يحدث مالا تحمد عقباه
فصاح بهم :

- جلوس ..

ولكن حضرة المفتش لم يسترح الى هذا فصاح بهم بدووه :

- قيام .. لانجلسوا حتى آذن لكم .

وعاد التلاميذ للوقوف ولم يستطع أكثرهم أن يغالب الإبتسام ..
وصدرت ضحكة خافئة من تلميذ فى آخر الفصل .. والتقطعت أذن حضرة
المفتش هذه الضحكة .. فأسرع يقفز الى الركن الذى صدرت منه
الضحكة وقد أشهر فى يمينه قلمه . وفى يسراه مفكرته .. وارتبك
السعداوى افسدى .. فقد أدرك أن زمام الامر أوشك أن يفلت من يده ..
وقال تلميذ يجلس أمامه :

- تعرف يا أستاذ .. دا عامل زى السجيع يتاع السبعا ..

فأوما السعداوى اليه مؤنبا .. ولكن بعض التلاميذ سمع هذه العبارة
فضحك .. فتوقف حضرة المفتش قبل أن يصل الى نهاية الفصل والتفت
خلفه صامحا :

- التلميذ الذى ضحك يقف ..

ولم يقف أحد بطبيعة الحال .. فماد حضرة المفتش يصيح وقد أشهر
قلمه ومفكرته :

- قلت ان التلميذ الذى ضحك يقف ..

وهم السعداوى أفندى بالتدخل لولا أن طرق الباب ثم دخل الرئيس
درويش وقال للسعداوى أفندى :

- التليفون يا أستاذ سأل على حضرتك ..

وغاص قلب السعداوى أفندى .. هل مات ابنه ؟ .. ونسى كل ما
حوله .. وهم بالانطلاق مهرولا من الباب .. لولا أن مد درويش يده
بالورقة قائلا :

- وحضرة الناظر بعت لك دى ..

وتناول من درويش الورقة بيد ترجف والتهم سطورها بسرعة ..
فقرأ :

«الاستاذ السعداوى .. حرمتك وابنتك عند الدكتور علوان .. اتصل
برقم ٩٣٥٢٧ *»

لم يمت ابنه اذن ..! حمدا لله ..! ولكن .. لماذا ذهبت به زوجته الى
الطبيب الان .. فى حين أنه وعد بزيارته فى المساء .. لا بد أن حالته
خطرة .. وينبئ أن يتصل تليفونيا بالطبيب .. ولكن .. حضرة المفتش !
هل يتركه فى الفصل وحده ..؟ انه واثق أنه لو تركه منفردا لحظقتواحدة
لحدثت مذبحه بينه وبين التلاميذ *

وكان دخول الرئيس درويش والذعر الذى ارتسم على وجهه
السعداوى أفندى قد اجتذبا انتباه كل من المفتش والتلاميذ .. فساد
صمت قلق قطعه حضرة المفتش قائلا :

- أحدث شيء يا أستاذ ؟

فقال السعداوى مضطربا :

- ابني .. ابني يا حضرة المفتش .. حالته ...

فقاطعه المفتش :

- لماذا تحدث باللغة العامية ؟

فبهت السعداوى افندى .. ومضى حضرة المفتش قائلا :

- يجب أن تلزم الفصحى فى حديثك أمام التلاميذ لتكون قدوة لهم

وأوشك السعداوى أن ينفجر ليقول له ان ابنه يموت .. وان هذه
هى مشكلته .. وان الحديث بالفصحى لن ينقذ حياته والحديث بالعامية
لن يقضى عليه .. أوشك السعداوى أن يقول كل ذلك لولا أن حضرة
المفتش سأله :

- درس اليوم ؟

- انشاء ..

فتطلع حضرة المفتش الى السبورة .. كان مكتوبا عليها ووصف يوم
مطير، فصوب قلمه الى أحد التلاميذ قائلا :

- اقرأ ماعلى السبورة .

فوقف التلميذ معتدلا .. نافخا صدره .. رافعا رأسه .. ثم قرأ
فى صوت جهير :

- وصف يوم مطير ..

ولكن حضرة المفتش صاح به :

- افتح عينيك جيدا .. واقرأ ماأمامك ...

فعاد التلميذ يقول فى صوت أكثر جهورا :

- وصف يوم مطير ..

- قلت لك افتح عينيك وقرأ ماأملك بالضبط ..

ودعش السعداوى افدى .. وحقق التلاميذ فى السبورة .. كان
معليها هو مقرأه التلميذ تماما .. وقال التلميذ :

- اللى مكتوب قدامى (وصف يوم مطير) ..

فصاح به حضرة المفتش :

- هل هذه يوم بأعمى ؟

- نعم يوم ..

- هل الباء تحتها نقطتان أم نقطة واحدة ؟ انها تقرأ هكذا ، «وصف
يوم مطير» •

وانفجر التلاميذ ضاحكين .. ولكن حضرة المفتش صرخ فيهم
كالغضنفر .. فاحتجبت الضحكات فى أفواههم .. ومضى هو قائلاً :

- تعلموا أن تقرأوا ما أمامكم بالضبط .. لا تقلبوا اليوم يوما .. فرفع
أحد التلاميذ أصبعه وسأل :

- وهى البومة يمتطر ؟

- هذا هو السؤال ..! كان ينبغي عليك أن تسأل الاستاذ هل
اليوم يمتطر .. حتى يضع نقطة تحت الباء •

واضطرب السعداوى افدى أن يستند الى أقرب حائط اليه حتى
لا يسقط منمى عليه .. وقال حضرة المفتش :

- استمر فى درسك ياأستاذ .. واعطنى كراسة التحضير •

وناوله السعداوى كراسة التحضير ذاهلا .. كان عقله يقفز مترنحا
بين ابنه المحضر والبومة التى تمطر والدرس الذى ينبغى أن يشرحه
للتلاميذ •

وفجأة دخل الرئيس درويش مرة أخرى .. فعاد قلبه يفوص
جزعا وسأله :

- فيه حاجة ياريس ؟

- التليفون عاوز حضرتك تاتى ..

- طيب .. أنا جاي •

وهم بالاستئذان للخروج .. ولكن حضرة المفتش صاح به وهو
يلوح بكراسة التحضير فى وجهه :

- ماهذا ياأستاذ ؟

- خيرا ..؟

- درس اليوم الذى أئبته فى الكراسة هو المبتدأ والخبر .. وأنت
تدرس انشاء ..

فتلثم السعداوى قائلا :

- أصل اضطرت أغير الدرس .. علشان .. علشان .. ابنى ..
ابنى ..

فقاطعه حضرة المفتش فى حزم :

- ابنك هو الذى غير الدرس من نحو الى انشاء ؟

- يا حضرة المفتش • • • بعدين أفهم حضرتك • • بس دلوقت • • لو سمحت أشوف التلفون • • علشان • •

فقال حضرة المفتش مقاطعا :

- انت فى عملك يا أستاذ • • وينبى ألا تخرج من الفصل • • •

- أصل يا حضرة المفتش • • ابنى • • ابنى حاله • •

ولكن حضرة المفتش صرخ فى الريس درويش :

- اذهب وقل لمن يطلبه انه مع حضرة المفتش • • وليتصل به فيما

بعد • •

وخرج الريس درويش • • تاركا السعداوى افدى يتنفذ فلما
وجزعا • • فينبى عليه أن يطيع حضرة المفتش ولا ينضبه • • فانه لو كتب
ضده تقريرا سيئا • • لحرم من الترقية التى ينتظرها هذا العام • • وفى نفس
الوقت ينبى أن يطمئن على ابنه • • فهذا الاتصال التلفونى الثانى يحمل
له خبرا بغير شك • • فما هو هذا الخبر • • ؟ هل مات عبد الحى • • يجب
أن يعرف • • ويجب ألا ينضب حضرة المفتش فى نفس الوقت • • فماذا
يفعل • • نعم • • ماذا يفعل ؟

وأقذه الجرس من حيرته • • فقد دق معلنا انتهاء الحصة • • فهروا
خارجا من الباب • • ولكن حضرة المفتش صاح به :

- يا أستاذ • • •

- نعم • •

- أريد كراسات التلاميذ •

- حاضر • • بس أشوف التلفون •

- ياأستاذ اجمع كراسات الفصل الآن .. قبل أن تخرج من فضلك
وأحضرها لى فى حجرة الناظر •
ثم تركه وخرج •

وضاق صدر السعداوى أفدى .. انه لن يهرب من المدرسة
بالكراسات ، فلماذا يصر حضرة المفتش على جمعها الآن .. وهم بأن
يرفض وليحدث ما يحدث .. لولا أن دخل درويش وناوله ورقة أخرى
قرأ فيها :

«الأستاذ السعداوى .. حرمك وابنك عادا الى البيت .. ويحسن
أن تذهب اليهما» •

أقد ضاعت عليه فرصة الحديث التليفونى فليس ثمة ما يدعو
للاصطدام بينه وبين حضرة المفتش .. ليجمع له الكراسات كما طلب ثم
يترك له المدرسة ويذهب الى ابنه •

وفى دقائق قليلة كان يحمل تحت ذراعه كوما من الكراسات ينطلق
به الى حجرة الناظر .. وطرق الباب ودخل .. كان حضرة المفتش
يجلس الى منضدة فى ركن الحجرة وأمامه قلمه ومفكرته ومنظاره • •
فوضع أمامه الكراسات فى صمت .. وذهب الى حيث يجلس الناظر خلف
مكتبه قاعدا :

- تسمح لى ياحضرة الناظر أخرج علشان أشوف ابنى •
فقال الناظر فى عطف :

- هو عنده ايه ياأستاذ سعداوى ؟

- تيفوئيد ياحضرة الناظر •

- ربنا ياخذ بيده .. عنده كلام سنة ؟

— سبعة أشهر بس •

— ياخبر •• صغير كده ••؟ طيب وجيت ليه النهارده ••؟ اتفضل روح •• ربنا يطمئنت عليه •• بس استاذن من حضرة المفتش ••
— طبعاً ••

وسار الى المنضدة التى يجلس اليها حضرة المفتش فرآه غارقاً فى أكوام من كراسات التلاميذ •• وقد أمسك بواحدة منها وظل ينظر الى صفحة فيها مدقفاً فاحصاً •• يرضها على الضوء تارة •• ويظللها بيده تارة أخرى •• ثم خلع منظاره •• وأخرج من جيبه عدسة مكبرة من نوع رخيص •• ونظر خلالها فى صفحة الكراسة •• فطفر قلب سعداوى افدى جزعاً •• واقرب منه ثم انحنى معه ينظر فى الكراسة •• فقال حضرة المفتش وهو يشير الى الكلمة :

— اقرأ هذه الكلمة ياأستاذ ••

وقرأ السعداوى افدى الجملة كلها :

— وظل هذا الأمل يداعب أحلامه ••

ثم سأل :

— مالها يا حضرة المفتش •• أظن دا خيال جميل وتصير أجمل ••

فقال حضرة المفتش وهو يضع اصبعه تحت كلمة (أحلامه) :

— ماهذا الذى فوق الألف ؟

— همزة ••

— أهذه همزة أم فتحة ؟

— يا حضرة المفتش •• دى همزة ••

- ولكنها تقرأ على أنها فتحة •

- وايه يخلينا نقول عليها فتحة •• دى همزة والله العظيم •• أجيبك الولد تسأله ؟

فألقي حضرة المفتش بالكراسة أمامه وتناول غيرها فى صمت ،
فقال السعداوى :

- أنا علوز أستاذن وأخرج علشان ابنى •••

فقاطعه حضرة المفتش فى صبر نافذ :

- ألم أطلب منك ياأستاذ أن تلتزم الفصحى فى حديثك ••

- حاضر •• من عنيه •• بس أنا خارج دلوقت •

- انتظر •• فأنا أريدك •

- بس ابنى ياحضرة المفتش حاته •••

فقاطعه فى حزم :

- انتظر من فضلك •• ربع ساعة فقط •• اجلس هنا •

فجلس السعداوى فى صمت •• وفتح حضرة المفتش مفكرته
وتناول قلمه وبدأ يحصى أشياء فى صفحة الكراسة ويدون الرقم فى المفكرة
ثم يقلب الصفحة ويمضى فى الاحصاء •• ودهش السعداوى ، فقال فى
تملعل :

- ياحضرة المفتش •• علوز أمشى •• ابنى •••

فقاطعه المفتش دون أن يرفع عينيه عن الكراسة :

- قلت لك ربع ساعة ، لقد جعلتني أخطيء في العدد .. من فضلك
لاتقاطني ...

وانقضت الدقائق قتيلا كثيرة .. وحضرة المفتش لا يكف عن
احصاء هذا الشيء المجهول .. ثم يدون أرقاما في مفكرته .. والسعداوى
افندى يردد بصره بين ساعته .. وبين التليفون على مكتب الناظر .. وبين
حضرة المفتش المكتب على الاحصاء في صمت وهدوء .

ثم دق جرس التليفون .. فدق معه قلب السعداوى جزعا ،
واشرأب بعينه الى يد الناظر وهي تتناول السماعة .. ثم سمعه يناديه :

- التليفون عاوزك ياأستاذ سعداوى .

ووثب السعداوى الى التليفون وصاح فى لهفة :

- ايه ؟ خير ؟ يا نهار اسود ..! خلاص ؟!

وألقى بالسماعة فى انفعال .. ثم اندفع الى الباب يريد أن يخرج
ولكن حضرة المفتش صاح به :

- ياأستاذ سعداوى.. لقد وجدت فى كراسة واحدة سبعا وثلاثين
همزة غير واضحة .

وتوقف السعداوى .. ونظر الى حضرة المفتش وقد التمت عيناها
غضبا.. لقد مات ابنه .. فمانا يهمله الآن..؟ انه لا يريد الترقية المنتظرة
بل انه لا يريد أن يعيش على الاطلاق .. وسار الى المتصدة فى هدوء
مصطنع وهو يقول :

- سبعة وثلاثين همزة ؟ مرة واحدة .. ورينى كده .

وتناول كوم الكراسيات من على المنضدة .. ورفعته بين يديه .. ثم
قدف به حضرة المفتش .

وشاهد الخدم منظرا لم يسبق لهم رؤيته ... حضرة المفتش
يجرى الى الفناء .. وخلفه الأستاذ السعداوى يقذفه بمجرة .. وحضرة
الناظر يصيح :

- ياأستاذ سعداوى .. مش كده .. عيب ياأستاذ ... مايصحش ..
اسمع بس .. علشان خاطرى ...

تمت الحفظ

عرفت عبد العزيز منذ عشرين عاما ، وانا تلميذ فى السنة الثانية الثانوية باحدى المدارس الحرة فى ضواحي القاهرة • كان زميلى فى الفصل ، وكان يتمتع بمكانة مرموقة بيننا جميعا ، ولم يكن ذلك لتفوقه فى دراسته فقد كان ترتيبه الاخير دائما ، ولم يكن ذلك لتفوقه فى الالعب الرياضية ، فقد كانت هذه الالعب ترفا لم تعرفه المدارس الحرة فى تلك الايام • ولم تكن مكاتته لكرم الاخلاق ، فقد كان شرسا مشاكسا متكبرا ، فضلا عن اننا كنا فى سن لايسمح لنا باحترام شخص لكرم أخلاقه ، انما كنا نعجب ببعد العزيز ونكبره لانه كان التلميذ الوحيد فى الفصل الذى يلبس (جاكّة) فوق القميص وجوريا تحت الحذاء •

كان كل التلاميذ - وأنا منهم - نكتفى بلبس قميص فوق السروال ، لانغير هذا الزى صيفا ولا شتاء ، فاذا قسا البرد فى ديسمبر ويناير ، أسرع أهلونا بوقائتنا من خطر الالتهاب الرئوى بقميص آخر قديم نلبسه تحت القميص الأول ، لم نكن نعرف الجاكّات والجوارب ، فالجاكّة يضى عنها قميصان ، والجوارب ترف لا فائدة منه ، مادام الحذاء يكفى وحده لوقاية القدم من تراب الطريق • كنا فقراء ، جمع شملنا فى هذه المدرسة عجز آباءنا عن دفع مصروفات المدارس الأميرية وكانت عشرين جنيها آنذاك •

ولم يكن أساتذتنا أحسن حالا منا •• كانوا جميعا ممن فشلوا فى امتهان مهنة أخرى ناجحة ، وقد جمعهم صاحب المدرسة - وهو ناظرهافى نفس الوقت - دون نظر الى مؤهلاتهم أو ثقافتهم ، فلم يكن منهم واحد يحمل شهادة عالية ، بل كان الكثير منهم ممن عجزوا عن اتمام دراستهم

بنجاح .. وكان سبب عجزهم عن مواصلة التعليم هو نفس السبب الذى
حرمتنا من لبس (الجاككات) والجوارب .. الفقر •

ورغم ان هذه الصفة التى تشترك فيها مع الأستاذة كانت كفيفة بأن
تدفعهم الى العطف علينا والشفقة بنا .. الا أنهم - لسبب لم نعرفه آنذاك -
كانوا قساة القلوب .. يتلذذون برؤيتنا ونحن تتمذب ونضرب .. بل ان
مصطفى أفندى مدرس اللغة الانجليزية كان يدخل الفصل مقبعا ضيق
الصدر نائم الأعصاب • يتلمس خطأ نافعها لأى واحد فينا .. فينهال عليه
ضربا عنيفا ويذكر من خلفه بأقذع السباب .. ثم يرسله لحضرة الناظر
ليستأنف عملية ضربه .. فاذا فعل ذلك انبسطت أسارير وجهه وهذأت
أعصابه الثائرة .. فاذا حدث ان انتهت الحصة دون أن يتصيد تلميذا -
وهذا نادر - خرج من الفصل يزفر من الغيظ وهو يقول :

- تقدمت المرة دى من ايدى يا ...

وما بعد (يا ..) هذه كان نعتا خاصا بمن أنجبونا .. وخلفونا
لمصطفى أفندى •

ومع أن مصطفى أفندى كان يلبس (جاكته) وجوربامثل عبد العزيز ،
الا أنه كان يكرهه ويحقد عليه حقدا شديدا ، لم يكن يضربه ، ولكنه كان
يتحين الفرص ليسلقه بلسانه المسموم بل كان يخلق هذه الفرص خلقا •
ولعل السبب الذى تجاه من عصاه هو شرسته •

وأنا أذكر أن أول مرة وقعت فيها عينا مصطفى أفندى على عبدالعزيز
أطال النظر اليه ثم قال :

- انت ياواد يالى مسبب شعرك • • قف • •

ووقف عبد العزيز • • فقال مصطفى أفندى :

- تعالى ياخويا عندى هنا ..

وخرج اليه عبد العزيز ووقف أمامه فى قفحة .. فقال مصطفى
أفندى :

- انت عامل فى شريكده ليه ؟ ومحزق الجاكطة قوى على ايه ؟ ..

فقال عبد العزيز فى صوت عال :

- وانت مالك ..

- وأنا مالى ياابن ..

فقاطعه عبد العزيز :

- اوعى تجيب سيرة أبويا .. انت عارف يشتغل ايه ؟

- بنى يشتغل ايه يابى زفت ..

ورفع عصاه ليهوى بها على عبد العزيز .. ولكن هذا أمسك بالعصا
قبل أن تلمس جسده .. وانتزعها من يد مصطفى أفندى وهو يقول:

- انت فاهم ايه ؟ .. دانا مرفود من المدارس الاميرية علشان
ضربت ناظر وأربعة مدرسين .. ! .. تيجى انت على آخر الزمن
تضربنى ؟ ..

وتضال مصطفى أفندى عقب هذه العبارة .. فلم يحاول استرجاع
العصا .. وانما انطلق من الفصل صائحا بأعلى صوته :-

- هاتوا حضرة الناظر .. الحقونى بحضرة الناظر ..

وجاء حضرة الناظر فأخذ عبد العزيز الى حجرتة ، ولم نعرف ماذا
حدث بينهما ، ولكن عبد العزيز عاد بعد ساعة مبتسما ، ورفض أن يجيب
على تساؤلنا الا بقوله :

- آمال اتم فاهمين ايه ؟ .. مش كل الطير اللي يتاكل لحمه ! ..

وعقب هذه الحادثة لم يكف مصطفى أفندى عن السخرية بعبد العزيز
وكان عبد العزيز يتحمل صامتا ويقول لنا انه يسمح لمصطفى أفندى بأن
يفعل به مايشاء ماعدا ضربه وسب والديه ..

الى أن كان صباح ..

كانت الحصة الثالثة هى حصة اللغة الانجليزية .. وكان مصطفى
أفندى قد عقد امتحانا لنا فى الحصة السابقة .. فدخلنا الفصل ونحن نحس
باكثاب واقباض .. بعضنا يدلك يديه استعدادا لمصطفى أفندى ..
وبعضنا يكاد يبكى خوفا من العقاب الذى ينتظره ، على أن عبد العزيز كان
أهدأنا وأثبتنا قلبا .. وعندما دخل مصطفى أفندى يحمل أوراق الامتحان
فى يد .. ويجر عصاه الطويلة فى يده الأخرى .. هب جميع التلاميذ
واقفين فى سرعة واضطراب .. ماعدا عبد العزيز الذى قام متساقلا ..
وتعلقت عيوننا بوجه مصطفى أفندى فى اشفاق .. وأخذ هو يتطلع بعينه
الذابلتين الى وجوهنا فردا فردا دون أن بأذن لنا بالجلوس ، ثم وضع أوراق
الامتحان على منصفه وعاد يتطلع الينا فى صمت .. ووجفت قلوبنا وتصبب
المرق من جباهنا .. وبدأت عضلات وجوهنا تتخلج فى تشنج .. وأخيرا
أخذ مصطفى أفندى يتكلم .. وكان صوته هادئا منخفضا الا أنه كان يدوى
فى آذاننا كالرعد .. وبدأ كلامه بالتحسر على حظله الذى جعله مدرسا
لأمثالنا من البهائم ثم أخذ يندب تعب الذى أرقناه على الأرض كما يراق
الماء هدرا .. وأخذ يرسم لنا مستقبلنا المظلم ويقسم بأغلظ الايمان أن أحسن
تلميذ فينا سينتهى به الأمر الى أن يعمل بالما متجولا .. أو كناما ..

ولم يؤثر فينا هذا التنبؤ .. فقد كانت هذه المهن مألوفة لدينا ، وليس
فيها واحد الا وفى عائلته بالعم متجول أو كناس .. وخطر لمصطفى أفندى

أن يحدد لكل منا مهته فى المستقبل ، فتناول أوراق الامتحان بين يديه وأخذ
يقرأ الأسماء اسما اسما ويقول :

— مجدى محمد عباس .. انت ماتنفش الا بوهيجى ..

على عبد الحفيظ .. انت أحسن لك تشتغل سفرجى ..

هلال على ريحان .. حقت تروح تشتغل زى أبوك .. قهوجى ..

ومضى يستعرض تلاميذ الفصل ويوزعهم على مهن مختلفة وكان هذا
الموقف الطريف والتوزيع الفكه قد ذهباً برهة الموقف .. وبدأت ضحكات
خافتة تنبعث من صفوفنا على أثر تعليقاته وتنبؤاته .. كل هذا ونحن واقفون
.. ثم أمسك بورقه عبد العزيز وقال :

— عبد العزيز عبد الخالق .. انت ماتنفش الا حلاق .. زى
أبوك ..

وكانت أول مرة نعرف فيها مهنة أبى عبد العزيز ..

ولم يلفت ذلك انتباهنا .. وكلنا كنا من نفس الطبقة ، فلم تتردهشنا
الا بالقدر الضئيل الذى تثيره (جاكّة) عبد العزيز وجوربه .. وكادت
المسألة تنتهى عند هذا الحد .. خصوصا ان مصطفى أفندى تناول ورقة
تلميذ آخر وهم أن ينطق اسمه .. لولا ان عبد العزيز اندفع من مكانه
فجأة الى مصطفى أفندى وهو يصيح به :

— أنا قلت لك ميت مرة مالكش دعوة بأبويا .. انت مالك انت اذا كان
حلاق والا مش حلاق .. ! .. انت تعرف أبويا بيحلق لمن .. ؟ ..
بيحلق للبهوات والبشوات ! ..

وخيم على الفصل صمت مفاجئ .. وذعر مصطفى أفندى عندما
رأى عبد العزيز يندفع نحوه .. فألقى بالأوراق فى وجهه وانطلق الى
باب الفصل وهو يصيح :

- يا حضرة الناظر .. يا حضرة الناظر ! ..

وأسرع بعض الخدم فحاولوا بين عبدالعزيز وبينه .. وذهب آخرون لاستدعاء حضرة الناظر الذى بلغت مسامحه الضجة وهو فى حجرته .. فجاء ثائرا غاضبا .. وفى يده عصاه الطويلة يتبعه رتل من خدم المدرسة .

حدث كل هذا فى لحظات قلائل .. وأفقتنا من دهشتنا فإذا بالفصل يبعج بالناظر وعدد من الخدم يحيطون به .. وعبد العزيز يقف أمام مصطفى افندى ، الذى أخذ يقص القصة على حضرة الناظر فى عصبية ، ويلوح بيديه مستصرخا شهادته وحزمه لحفظ كرامة المدرسين المهذرة ..

وخلع حضرة الناظر منظاره .. وحدق فى عبد العزيز طويلا واستقبل هذا نظراته فى هدوء وثبات .. وأخيرا قال حضرة الناظر :

- انت ما حدش مالى عينك يا ولد ؟ ..

فقال عبد العزيز هادئا :

- ليه يا به ؟ .. أنا قلت له ستين مرة ملوش دعوة ..

فصرخ الناظر فيه مقاطعا :

- اقلع الجزمة ! ..

وارتجت جدران المدرسة كلها لصراخ حضرة الناظر .. وبهت عبد العزيز .. واحمر وجهه .. وعاد حضرة الناظر يصرخ :

- اقلع الجزمة باقول لك ! ..

وتصبب العرق على جبين عبد العزيز .. ونظر الى حذائه فى تردد .. ثم نظر الى حضرة الناظر وقال :

- بس يا به ! ..

ولكن حضرة الناظر لم يمهله ليم عبارة .. وانما أهوى بالعصا الطويلة على رأسه ووجهه وهو يصرخ فيه :
- اقلع الجزمة .. اقلع الجزمة ..

وتحمل عبد العزيز الضرب فى ثبات .. فلم يتراجع للخلف .. ولم يصرخ .. وانما قال :

- حضرتك اضربنى زى مانت عاوز .. على ايديه .. على وشى .. على ضهرى .. انما مش حااقلع الجزمة ..!

واستشاط حضرة الناظر غضبا .. وانها لى عليه ضربا بالعصا .. كان يضربه بوحشية .. ومع ذلك لم يتزلزل عبد العزيز .. ظل واقفا فى ثبات .. وانما رأسه فى اصرار وهو يقول :

- أصل ماتحبش نفسك .. مش حااقلع الجزمة حتى لو شرحتنى .

وقطعت عليه عبارته عصا نزلت على وجهه .. ولسعت أنفه وشفتيه .. وارتفعت لتهوى مرة أخرى بعد أن تركت خطا أزرق داميا على وجهه .. ومع ذلك لم يصرخ عبد العزيز .. ولم يتراجع .. وانما تقلص وجهه من الألم .. ورفع يديه ليتقى بهما وقع العصا .. فصاح به حضرة الناظر :

- وكمان بترفع ايديك عليه ؟ .. لازم تقلع الجزمة ..

وصاح عبد العزيز باضعال :

- والله ماأنا قالمها .. شوف حتمل ايه بقى ؟ .. عاوز ترفدنى ارفدنى ! ..

وهذر الناظر بصراخ لم تتبين منه حرفا .. ولكنه كان كافيا ليعطل
الدراسة فى المدرسة كلها .. فخرج المدرسون والتلاميذ من الفصول
.. وتجمعوا حول باب فصلنا يتفرجون على هذه المركة ..

ورأى عبد العزيز ان المدرسة كلها تتفرج عليه .. ففقد صوابه ..
واندفع الى حضرة الناظر وأنشأ أصابعه فى رقبته ..

واندفع الجميع لانتقاذ حضرة الناظر .. فخلصوه من بين يدى
عبد العزيز .. ثم تكاثروا حوله وانهالوا عليه ضربا .. وعبد العزيز يرد
اللطمه لطمتين والركلة ركلتين وهو هائج وسطهم كالأسد الجريح ..
وحضرة الناظر يقف بعيدا عن المركة وهو يصرخ :

- قلموه الجزمة .. لازم يقطع الجزمة .. قلموه الجزمة ! ..

وأحس عبد العزيز بأنه يوشك أن يطلب على أمره فراجع الى الوداء
.. ووقف فى الممر الضيق بين مقاعدنا ، وتقدم اليه أحد المدرسين
وقال له :

- اسمع يا بنى .. اقلع الجزمة واقصر الشر ..

فقال عبد العزيز وهو يتراجع الى الخلف :

- مش ممكن .. ارفدونى .. انما مش حا اقلع الجزمة ..!
وقال بعضنا له :

- يا عبد العزيز علقة تفوت ولا حد يموت .. اقلع الجزمة واخلص!

فهمز عبد العزيز رأسه فى اصرار ..

ومصرخ حضرة الناظر فى الخدم :

- امسكوه .. لازم تعلقوه الجزمة ..

وانطلق ثلاثة من الخدم لتنفيذ هذا الامر .. وبدأت مطاردة عنيفة بينهم وبين عبد العزيز .. وهو يراوغهم ويغلت من أيديهم كلما أطبقوا عليه .. وتشر واحد منهم فسقط على تلميذ منا .. فارتفع صراخه .. وهاج الفصل وخرجنا من مقاعدنا فرعين .. وقفز عبد العزيز فوق أحد الادراج ثم أخذ يقفز من درج الى درج ليفلت من مطاردته .. كان من الواضح أنه يحاول الاقتراب من الباب ليهرب منه .. وأدرك حضرة الناظر ذلك .. فأسرع الى الباب فوقف عنده وخلفه أفواج التلاميذ الذين تبعوهوا ليشاهدوا الحركة ..

ورأى عبد العزيز أن طريق الباب مسدود .. فانطلق الى النافذة .. كان يريد أن يقفز منها الى الطريق غير مبالاً بأنها فى الطابق الثانى .. ولكن أحد الخدم أسرع الى النافذة فوقف عندها .. وهكذا وقع عبد العزيز فى فقع محكم لا مفر منه ولكنه لم يستسلم .. كان عناده غريباً .. فأخذ يقفز فوق الادراج وهو يراوغ الخدم الثلاثة .. حتى لهث أنفاسه .. وضخت قواه ..

وكان يقفز من درج الى درج عندما انزلت قدمه .. واختل توازنه .. فهوى بين المتقدمين .. وتلففته الأيدي .. فحملوه الى حضرة الناظر .. وألقوه على الأرض أمامه .. وجلس واحد على صدره .. وأمسك واحد يديه .. وبدأ الثالث يجذب حذاءه ليخلعه ..

ولاول مرة منذ بدأت الحركة .. صاح عبد العزيز متألماً .. وأخذ يستعطف حضرة الناظر :

- والنبي يحضرة الناظر .. أبوس ايديك .. بلاش تقلعنى الجزمة ..
ادبحنى يحضرة الناظر .. اشتقنى يحضرة الناظر .. بس بلاش
تقلعنى الجزمة ! ..

وكان فى صوته ألم غريب ..

ولكن أحدا لم يربأ باستطافه ، ومضى الخادم يجذب الحذاء حتى
تمكن من خلعہ ..

وفجأة صرخ الخادم الذى يجلس على صدره .. وقفز واقفا ، فقد
عضه عبد العزيز .. ثم جذب ساقه وذراعيه فى قوة ، فأفلت من الخدم وقفز
واقفا .. ونظر الى قدميه .. قدميه بلا حذاء .. وأطرق الى الارض فى
خجل .. وسالت من عينه دموع ..

وران على الجميع صنت مفاجيء .. وتطلعت عيونهم الى قدمي عبد العزيز
.. قدميه بلا حذاء .. لم يكن فيهما جورب .. كاتنا عاريتين مثل أقدامنا
تماما .. وكان الجورب الذى نراه كل يوم فوق الحذاء رقبة جورب فقط ..
لم يكن هناك (كمب) للجورب ! ..

وقال عبد العزيز فى صوت منخفض :

- يعنى يحضرة الناظر كان لازم تقلعنى الجزمة ؟ .. مبسوط دلوقتى
شفت الشراب اللي أنا لابسہ .. ؟ .. طيب .. شوف بالمرة .. أدى
الجاكّة رخو ..

ثم خلع (الجاكّة) التى يرتديها .. كان القميص الذى تحته ممزقاً ،
وكانت به رقع ولكنها تمزقت أيضا .. وقال عبد العزيز :

- خلاص استريحت يا حضرة الناظر ٩٠٠ استريحتم كلكم ٠٠

وحمل الجلاكة على ذراعه ٠٠ والخذاء فى يديه ٠٠ وسار نحوالباب
٠٠ فلم يترض طريقه أحد ٠٠ بل اخرجت جموع التلاميذ عن صفيين
طويلين بينهما طريق ضيق ٠٠

وخرج عبد العزيز ٠٠ ولم نره بعد ذلك فى المدرسة ٠

اللعبة الكبيرة

« أحداث اللعبة الأساسية من المبرتي »

- طاخ .. طاخ .. أنا الأُغا مستحفظان ديوه !!

قالها صبي صغير فى ثياب زرقاء افترض فيه انه صبيان انه الجنرال
ديوه محافظ القاهرة ..

- طاخ .. طاخ .. وانا الشيخ عبد الوهاب !!

قالها سلامة وهو يقفز نحو الجنرال ديوه ورفاقه ، ودفعه فى صدره
فمقط على الأرض صالحا :

- آه .. قتلنى يا بونايرته ! ..

وضع الصبيان ضاحكين وصاحبهم يستغيث بنابليون بونايرت ..

بدأت هذه اللعبة منذ قرن ونصف بين سلامة وبقيّة صبيان حارة
المقدم فى القورية ، كان الوقت ضحى ، والجو رائقا جميلا ، واليوت
قد خلت الا من النساء أمام مواقدهن ينضجن طعام اليوم ، أمام الرجال
فكانوا قد خرجوا الى دكاكينهم مبكرين لعلهم يعوضون خسارتهم فى تلك
الأيام التى أغلقوها فيها أثناء ثورة القاهرة ضد الفرنسيين منذ
أسابيع ..

ولم يكن لأهل القاهرة من حديث الا عن هذه الثورة ، فالرجال فى
دكاكينهم يتحدثون فى وجوم وحقد ، والنساء أمام مواقدهن يندبن الشهداء ،
والصبيان فى الحواري يلعبون فيستعيدون أحداث الثورة التى شهدوها أو

سمعوا بها ثم يحولونها الى أَلَماب قد تصنف أحيانا لتكون مشابهة لما حدث
فعلا خلال الثورة ..

وفي حارة المقدم انقسم الصبيان الى فريقين ، فريق يمثل المصريين
وفريق يمثل الفرنسيين ، وتسمى افراد كل فريق باسماء المشهورين من
رجالهم ، فأصبح بعض الصبيان يسمون أنفسهم الشيخ انسادات والشيخ
الفيومي ، وبعضهم يسمي نفسه بونايرته الكبير والاغا مستحفظان ديسوه
والاغا فرط الرمان ، واختار سلامة اسم الشيخ عبد انوهاب بطل حارتهم .

وكانت هناك صلات تربط انضمام بهذا الشيخ فقد كان صديق والده
وجارهم في الحارة ، وكثيرا مارآه انضمام يجلس مع والده والصحاب من
أهل الحارة في السهرة يتحدثون ، وكان الشيخ عبد انوهاب أجهرهم صوتا
وأشدهم بذاءة اذا تحدث عن الفرنسيين .. ورأى الغلام رجال الحارة ذات
صباح يخرجون حاملين عصيهم يتقدمهم الشيخ عبد الوهاب وفي يده سيف
طويل يرق في ضوء الشمس ، فجري خلفهم متشبث بثوب أبيه ، ولكن أمه
أمسكت به لتعيده الى البيت ، فصرخ وصخب ، ولم يهدأ الا عندما ربت
الشيخ عبد الوهاب على ظهره قائلا :

- ارجع مع أمك .. وسأعود لآخذك فتقتل الفرنسيين معنا ؟ ..

ثم انطلق الجمع الى شارع الفورية ليختفي بين الجماهير التي يموج
بها حتى الازهر ، وسمع الغلام طلقات رصاص وصرخات أنهم ، فحاول أن
يخرج الى الطريق ليستطلع الامر ، ولكن أمه أغلقت دونه الباب فاضطر أن
يكفي بانتطاع من النافذة ومن هناك رأى بعض أهل الحارة يعودون وقد حملوا
بين أيديهم أجساما ملفوفة في ملايات بيضاء بها بقع حمراء كبيرة يدخلون
بها الى بعض البيوت ثم يخرجون مسرعين ليعودوا الى الازهر من جديد .

وفي المساء لم يهد أبوه ، ولم يهد واحد من أهل الحارة ، وسمع الغلام

أن الرجال سييتون في الأزهر ، وأن الأغا مستحفظان ديوه قد قُتل مع
كثير من عساكر الفرنساوية ..

وفي الصباح عادت طلقات الرصاص وصرخات الألم ، ثم سمع الغلام
انفجارات مدوية ، كانت أصوات مدافع ، ورأى بيوتا تحترق وجدراننا
تهاوى فوق رموس من فيها من النساء والأطفال .

وفي المساء عاد أبوه وبعض الرجال ، عادوا منكسرى الرموس مهدلى
الأكفاف ، ودخلوا الى بيوتهم فى خلو كتيب متخاذل ، وجرى الغلام نحو
أبيه صائحا :

- تلتم الفرنساوية ؟

ولكن أباه استلقى على حصيره دون أن يجيب ، وتقدمت أمه تأخذه
من يده لترقده بجانبها على الحصير . وفي منتصف الليل صاح الغلام على
صوت يقول لأبيه :

- سنمود .. ثقى من ذلك .. سنمود من جديد ..! وستنجح فى
المرّة القادمة ..!

كان صوتا يعرفه الغلام جيدا .. هو صوت الشيخ عبد الوهاب ،
ولكن كانت فيه نبرة غريبة لم يفهم الغلام سببها وان جعلت قلبه ينقبض فى
صدره ، فقام من حضن أمه وتسلل الى الباب فرأى الشيخ عبد الوهاب يعطى
أباه السيف البراق الذى خسرجه فى الثورة ، فيخفيه أبوه بين كومة من
التياب القديمة وخرج الشيخ عبد الوهاب ولم يره الغلام بعد ذلك وإنما
رأى فى الصباح عساكر الفرنساوية يقتحمون الحارة وهم يطلقون الرصاص
ثم رأهم يفتشون البيوت ومنها بيت أبيه ، ولكنهم لم يفتنوا لكومة التياب
القديمة بقدر اهتمامهم بحلى ذهبية كانت أمه تخفيها فى الدولاب ، فأخذوها
وخرجوا وتركوا سيف الشيخ عبد الوهاب فى مكانه بين التياب القديمة ..

وبعد أيام سأل سلامة أباة :

- لماذا لم يرجع الشيخ عبد الوهاب ليأخذنى كما قال ؟ ..

وصمت أبوه قليلا ثم قال :

- الشيخ عبد الوهاب سافر

- ومتى يرجع .. ؟

- لا أدرى .. !

- ولكنه وعدنى .. !

فلم يجب الاب ، وما كان فى استطاعته أن ينبىء ابنه أن الفرنسيين قد قبضوا على الشيخ عبد الوهاب وهو يحاول الهرب ليلا من القاهرة ، وأنهم أعدموه شتاء ثم ألقوا جثته خلف القلعة ، لم يكن فى استطاعته أن يخبر ابنه بكل هذا ، فقام وغادر الدار فى صمت ، ولكن سلامة أخذ منذ ذلك اليوم يتطلع كل صباح الى مدخل الحارة متوقفا أن يرى الشيخ عبد الوهاب عائدا ليسرد سيفه ، ويقود الرجال ، ويأخذه معه لقتل عساكر الفرنسيات .. !

وسمع انت وهو .. أنا فرط الرمان .. ! طاخ .. طاخ .. !

وكان الصبيان - مثل كل الشعب - يسمون برثلميو الرومى بفرط الرمان ، وكان برثلميو روميا يعيش فى مصر ، فلما جاء الفرنسيون تعاون معهم ، فعينه نابليون رئيسا للشرطة (أغا) ، فكرهه المصريون لأنه أسرف فى اخلاصه للفرنسيين ، كان يهذب المصريين ويقتلهم بالشبهة . فلما صاح أحد الغلمان معلنا أنه فرط الرمان ، ارتفعت أصوات الباقين مصوتين فى استهجان ، وهجم عليه سلامة صاحبا :

طاط .. طاط .. أنا الشيخ عبد الوهاب ... !

ثم تشابك الغلامان بالأُدىء فسقط فرط الرمان على الأرض ، وجثم سلامة على صدره ، وتحمس فريق المصريين فهجم على الفريق الذى يمثل الفرنسيين صائحين مهتلين ، وأوشكوا ان يتصروا عليهم لولا أن واحدا منهم صاح وهو يطوح بعصاه فى الهواء :

- ابعد من قدامى انت وهو .. أنا بونايرته الكبير .. !

ولما كان الصبيان يرفون أن نابليون هو الذى أخمد الثورة ، كان من المفروض أن يهزم فريق المصريين أمام من يمثل دوره ، ففروا جميعا من أمامه وضحكات بعضهم تختلط بصراخ الآخرين ممن اندمجوا فى دورهم تماما ، وتفرقوا من حول سلامة الذى كان يربض على صدر فرط الرمان مسكاً بختافه وهو يصيح :

- أنا الشيخ عبد الوهاب .. !

فصاح به من يمثل دور نابليون :

- وانا بونايرته الكبير .. أنا سارى عسكر .. اهرب من قدامى ..

ولكن سلامة لم ينزعزع ، وقد ملكته حماسة النصر على فرط الرمان ، وقال :

- الشيخ عبد الوهاب لا يهرب .. !

وحينئذ لم يجد نابليون مفرأ من أن يهجم على الشيخ عبد الوهاب ، وتعاون هو وفرط الرمان الذى تمكن من التخلص ، فأمسك بسلامه وطرحاه أرضا ، ثم أمسك كل منهما باحدى قدميه وأخذا يجراانه على أرض الحارة بين ضحك الرفاق وضجتهم ، وحاول سلامة عبثا أن يتخلص منهما ، ولكنهما

مغنياً يسبحانه على الأرض الصلبة الجافة ، وأحسن بشئ. يشتبك بجلبابه
فيمزقه ، تصرخ بصاحبه أن يتركه ولكن فرط الرمان قال له متحدياً :

- اعترف بأنك مقتول .. !

- الشيخ عبد الوهاب يقتل ..؟ لا يمكن ..!

وارتطمت رأسه بالأرض .. فعاد يصرخ بهما أن يتركاه ، ولكن
فرط الرمان صاح به :

- أنت مقتول .. قل أنك مقتول .. !

مستحيل أن يعترف بأنه قتل ، والا الحسب العار بالشيخ عبد
الوهاب .. ! .. أو لم يسمعه بأذنيه يقول لايه انه سيمود ليقتل الفرنسيين
.. وانه سينجح ؟

واصطدم رأسه بحجر .. تصرخ متألماً ، وأحسن اصحابه انه صادق
فى ألمه ، فترك نابليون القدم التى يمسك بها ، ولكن فرط الرمان لم يتخل
عن القدم الأخرى ، فجذبها سلامة فى عنف ووثب واقفاً وتحسس موضع
الآلم من رأسه ، فارتدت اليه يده ملوثة بسائل أحمر ، فحدق فيه ذاهلاً ، ثم
صرخ بمن يمثل فرط الرمان :

- قتلنى .. ؟ .. والله لاقتلك فى الحلال .. !

ثم انطلق يجرى الى بيته تشيعه ضحكات رفاقه وسخرية فرط الرمان ،
ولكنه كان يرتجف غضباً . أيقن الشيخ عبد الوهاب بيد فرط الرمان الحائن
البصائر .. وسيفه لا يزال فى مخبئه بين الثياب القديمة .. ؟ .. !

ولم يكن واحد من رفاقه يعلم ما يدور فى رأسه .. ففوجئوا به
يخرج من باب البيت وهو يشهر فى يده سيفاً لامعاً .. ثم اندفع صوبهم
جامداً النظرات عابسين الوجه ، تصرخ الغلمان فى فزع وأطلقوا سيقاتهم

للريح ، وسرعان ما أصبحت الحارة خالية تماما الا من سلامة وفى يده السيف
اللامع ..

وفى تلك اللحظة .. ظهر على رأس الحارة ثلاثة من الجنود
الفرنسيين ..

كان نابليون قد أصدر أمره بمد اخماد ثورة القاهرة بجمع السلاح
من الاهالى ، وفرض القتل على كل من يخفى سلاحا ، واقتحم أعوان
برثلميو كل بيت يفشونه حتى اعتقدوا أن القاهرة قد خلت من السلاح ،
فلما رأى الجنود الثلاثة غلاما يلعب فى الحارة مشهرا سيفا طويلا لامعا ،
وقفوا يحدقون اليه فى دهشة ، ثم اندفعوا نحوه للإمساك به .

وكان سلامة لا يزال يرتجف انفعالا ، فقد أسكره انتصاره على
اصحابه الذين اتحلوا شخصية الفرنسيين ، ثم فوجئ بفرنسيين حقيقين
يندفعون نحوه .. فاللعة اذن لم تنته بعد ..! وينبى أن يتصر على هؤلاء
الثلاثة كما انتصر على الباقين .. فصرخ فيهم وهو يجرى نحوهم :

— وسع انت وهو .. أنا الشيخ عبد الوهاب . !!

وضحك الجنود الثلاثة من تلك الأربعة عشر ريبا التى تجرى اليهم
وفى يدها سيف . ! .. ومد أولهم يده ليمسك بالغلام ، ولكن السيف
مضى قاطعا بشق طريقه فى صدره .. ثم تستقر ذبابته فى القلب !! ..

وكف الجنديان الآخران عن الضحك .. وأدركا أن هذا الغلام
غير عابث .. فمدا أيديهما الى مقبض سيفيهما ، ولكن سلامة كان قد انتزع
سيفه من صدر الأول ليغمده فى بطن الثانى .. ورأى الثالث ما حدث فلم
ير مايدعوه لاجتياز هذه التجربة وانطلق يجرى صارخا فى فزع
كأنما الشياطين فى أعقابهم ..

واجتذبت الصرخات أسماع الامهات .. فتركبن مواقف الطعام وأطلن
من النوافذ ليرين سلامة الصغير ينسدفع خلف الهارب .. فاطلقت
الصرخات ... واندفعن خلفه ، تقدمهن أمه وحيياتها .. ورأى الرجال
فى دكاكينهم جنديا فرنسيا يجرى ، وفى أعقابهِ غلام صغير فى يده سيف ،
ثم جماعة من النسوة يجرين خلفهما صائحات مولولات ، فأغلقوا الدكاكين ،
ثم انطلقوا خلف الجميع ، وسرعان ما أصبح شارع الفورية يحرق بموج
بالخلق ويضج بالصراخ ..

وكان هناك كثيرون من جنود نابليون ، فلما رأوا تلك الجماهير
الصاخبة تجرى نحوهم صاح أحدهم :

- لقد ثارت القاهرة مرة أخرى .. !!

ولما كان الفرنسيون لم ينسوا بعد ما أصابهم من الثورة الاولى ، فقد
انطلقت جموعهم هاربة ، وكلما مروا بجماعة منهم صاحوا بهم أن الثورة
ثبتت من جديد .. فينضمون اليهم فى القرار .. !

وهكذا كبرت اللجة ، وخرجت من حارة المقدم بالفورية الى حى
الازهر كله .. وانتقلت من الصبيان الصغار الى الأبطال الحقيقيين من
مصريين وفرنسيين

ووصل الخبر الى نابليون .. قيل له ان فارسا ملثما ضخما قتل اثنين
من جنوده وارغم الثالث على الفرار .. ثم قاد الجماهير الى ثورة جديدة ،
فامر باخماد الثورة فى الحال والقبض على الفارس الضخم الملتهم ..
وانتقلت المدافع الى مواقع الضرب .. وبدأت فرق الفرسان تخرج من
تكتاتها ..

وأفادت الجماهير التى تتبع سلامة على صوت مدفع يجلبجل فوق
رعوسهم .. وسقطت القذيفة على منزل أمامهم فهدمت جداره ، وعلا
الصراخ والصخب .. وتدفقت الجماهير بالنكاك وماجت جموعهم ..

وسرى الاضطراب اليهم .. واحتلظ سلامة بالجموع .. وضاع بينهم ..
لم يلتفت أحدهم اليه .. ونسى هو كل شيء الا الرغبة في الفرار ..
وتابعت القذائف .. وسقط بعضها بينهم ففتكت بعشرات منهم .. وزاد
الاضطراب والصراخ .. وضاع صوت أم سلامة وهى تنادى عليه وسط
دوى المدافع وصراخ الناس .. لم يكن فى حسابهم عندما خرجوا خلف
سلامة أنهم سيقاتلون الفرنسيين أو انهم فى ثورة ، فلما فاجأهم القذائف
أدركوا أنهم معرضون لمذبحة كذلك التى خاضوها منذ اسابيع ، ولكنهم فى
هذه المرة مجردون من السلاح ومن القيادة .. فلم يكن أمامهم الا الفرار
.. فأخذ كل منهم يشق طريقه بكففيه الى أقرب مكان يحويه ، ووجد
سلامة أمواج الجماهير تلقى به الى مدخل حارة ضيقة ، فدخل اليها ثم
انطلق يجرى .. ويجرى .. ويجرى .. ويدخل الى حارة ليخرج من
حارة .. وينحرف فى زقاق ليدفعه الى زقاق .. وبدأ يحس بأن الجماهير
تحققى بسرعة من حوله .. ولكنه استمر فى انطلاقه .. حتى لهمت
أنفاسه .. وتصبب جسمه بالمرق .. وضاق صدره عن احتمال هذا
الجهد .. فكبا على الأرض .. وانبتق دم من أنفه .. ثم لم يعد يحس بما
حوله ..

* *

وعندما أفاق وجد نفسه فى قاعة مظلمة رطبة ، فاذنتها كوة ضيقة ،
وأرضها حجر صلد ، وبابها مطلق دونه ، وسمع فى الخارج أصواتات تحدث
بلغة غريبة لم يسمعها من قبل ، وصليل سيوف تحتك بالأرض ، ووقع
أقدام ثقيلة تروح وتجيء أمام الباب وحاول أن يتحرك فصجزت يده
وقدماه عن الحركة .. كان مشدود الوثاق ، فأدرك أنه وقع فى أيدي الفرنسيين
وأنهم سيأروون للجنديين اللذين قتلها .. وسيقتلونه ، فهم يقتلون الناس
دون سبب . وفزع من الموت ، هذا الموت الرهيب الذى يجعل الانسان
لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ، والذى يجعله يعيش بعيدا عن الناس ..

هناك فى حجرة مظلمة فى الجبابة ينزل اليها بسسلم تحت الارض ، ثم لا يخرج منها ولا يقابل أحدا ولا يتحدث الى أحد الا يوم القيامة الذى سمع عنه من الشيخ عبد الوهاب فى سهراته مع والده والصحب .. !

وانطلق يركى .. كان خائفا .. مفزعا .. فى تلك الحجرة الرطبة المظلمة .. موثق اليدين والقدمين بعيدا عن أيه وأمه .. جاثما لا يستطيع أن يأكل .. ظمآن لا يستطيع أن يشرب .. متعبا لا يستطيع أن ينام .. انه لا يستطيع شيئا على الاطلاق .. وسيموت كما مات هؤلاء الناس الذين رأى أهل حارته يحملونهم فى ملاءات بيضاء بها بقع حمراء .. لقد سمع أباه يقول انهم أبطال .. وانهم لم يموتوا عبثا .. وانما ماتوا بعد أن قتلوا عساكر الفرنسوية .. وأراحوا العالم من جزء منهم .. ولذلك سيدخلون الجنة .. لان الله يحب كل من يريح العالم من عساكر الفرنساوية ..!! .. وهو .. ألم يرح العالم من اثنين منهم .. ؟ .. انه بطل اذن .. والله يحبه أيضا .. وأبوه يحبه .. وكل أهل الحارة .. بل كل أهل مصر يحبونه .. حتى أصحابه الصبيان فى الحارة يحبونه .. وفرط الرمان الذى كان يتشاجر معه .. انه يحبه أيضا .. فهو يعرف أنهم كانوا يلعبون .. وفرط الرمان هذا .. ويونابرتة الكبير .. وكل من كانوا فرنسيين .. ليسوا أعداء له فى الحقيقة .. بل هم مثله يكرهون عساكر الفرنسيين .. وانما هو لعب فقط .. كانوا صغار يلعبون .. وهو الآن يلعب وحده مع الكبار .. مع عساكر الفرنسيين الحقيقيين .. أليس بطلا .. ؟ .. ألا يستحق أن يحبه الناس من أجل ذلك .. ؟ وما قيمة الموت بجانب هذا الحب الكبير .. حب الله .. وحب الناس جميعا .. كل الناس .. ؟ .. وما هو الموت .. ؟ .. انه لا يهذب .. نطاح .. ثم يقع على الارض بفير روح أو ربما علقوه فى جبل مثل جبل (المرجيحة) .. فيظل يتأرجح .. ثم ينزلونه بفير روح أيضا ..

وكف عن البكاء .. !

* * *

سبق سلامة الى قاعة واسعة حيث واجه فرط الرمان الحقيقي ،
فطلع اليه في فضول ، والتقت نظراتهما ، فلمت في عين فرط الرمان
كراهية شديدة .. وكانت في عين سلامة نظرة ساذجة هادئة مطمئنة
.. أهذا هو فرط الرمان .. « البمع » الذي يخيف اناس ؟ .. لقد كان
يظنه عملاقا أسود الوجه بارز الانياب .. ولكنه يراه الآن لأول مرة ..
انه لا يختلف كثيرا عن فرط الرمان الذي غلبه في الخلوة وأرغمه على
الفرار .. فهو مثله قصير نحيل هضم الوجه .. وان كان هناك فرق فهو
في هذه التجاعيد التي تنقد فوق جبهته وهذه الصلعة التي تلمح فوق
كفيه .. ! .. لن يغلبه هذا القزم البصاص .. لن يهزم في هذه اللعبة
الكبيرة ، سيحافظ على انتصاره مهما فعل به .

وما كاد الباب يفلق عليهما حتى تقدم فرط الرمان من سلامة ..
وحاول أن يكسو وجهه بسمكة مصنوعة ثم قال :

— والآن يا بنى الصغير .. من أنت ؟

كان فرط الرمان قد علم من الجندي الهارب أن الاغتيال حدث في
حارة المقدم بالفورية ، فقبض على كل اهلها .. وفتش بيوتهم .. وحاول
عبثا أن يعلم اسم الفارس المثلث .. ولكنهم جميعا كانوا لا يعرفون .. ! انهم لم
يروا شيئا .. كأنهم كانوا في بلد أخرى ولم ينطلقوا في مظاهرة صاخبة .. !
فلما قبض على الغلام مغمى عليه .. ووجد بجانبه السيوف وعلى ملابسه
بقع من الدماء .. علم أنه هو القاتل .. وأن ليس هناك فارس ملثم ..
وانما هو جين الجندي الهارب الذي اخترع هذه الاسطورة .. ولكن بقي
الفرز الذي عجز عن معرفته من أهل الحارة .. ما اسم هذا الغلام .. ؟

وأعاد السؤال مرة ثانية :

- من أنت يا بنى ؟

ولكنه لم يتلق إجابة من سلامة ، الذى كان يفكر فى شيء آخر ..
لماذا يسأله فرط الرمان عن اسمه ؟

أريد أن يعرف أباه وأهل حارته كى يقبض عليهم ويقتلهم ؟ وماذا
يقول الشيخ عبد الوهاب عندما يعود ليقودهم لقتل عساكر الفرنسية ..
فيجدهم قد قتلوا .. ويعرف أنه هو الذى دلّ عليهم ؟ لا .. لن يقول
اسمه الصحيح .. !! وبدأ صوت فرط الرمان يقسو وهو يسأل للمرة
الثالثة :

- من انت ؟ .. ألا تريد الكلام ؟ .. قل .. ما اسمك ؟ ..

وانطلق صوت سلامة ككذيفة المدفع .. لم يقل غير كلمتين اثنتين :

- الشيخ عبد الوهاب .. !

وابتسم فرط الرمان فى خبث وقال :

- شيخ عبد الوهاب ؟ .. أنت شيخ اذن .. !! ؟ .. ولكنك صغير
جدا على هذه المشيخة .. ! .. طيب يا مولانا .. ومن أبوك .. ؟

كلا .. لن يقول له اسم أبيه .. لاشيء الا :

- الشيخ عبد الوهاب .. !!

فهز فرط الرمان رأسه فى ضيق وقال :

- عرفنا انك شيخ عبد الوهاب .. ولكن ... شيخ عبد الوهاب ابن

بن ؟

- الشيخ عبد الوهاب .. !!

فصمت فرط الرمان فى غيظ ثم قال بعد لحظة وهو يشير الى سيف
«الشيخ عبد الوهاب الملقى فى ركن الحجره :

- طيب .. دعنا من اسم أليك .. سيف من هذا .. ؟

- الشيخ عبد الوهاب .. !!

ونقد صبر فرط الرمان ، فأهوى بكفه على وجه الغلام وصرخ
شرا :

- شيخ عبد الوهاب .. شيخ عبد الوهاب .. لاشئ الا شيخ عبد
الوهاب .. ؟ .. سأرغمك على الكلام *

وأمسك بسوط رفته فوق رأس الغلام وصرخ فيه :

- سيف من هذا ؟

- الشيخ عبد الوهاب .. !!

فأهوى بالسوط فوق جسد الغلام وهو يردد :

- قلت لك سيف من هذا ؟

- انشيخ عبد الوهاب .. !!

وارتفع السوط مرة ومرة * حتى مزق ظهر الغلام .. واحتلظ
صياح فرط الرمان بصراخ سلامه ، وكلما تعب أعاد سؤاله عن صاحب
السيف فلا يسمع الا « الشيخ عبد الوهاب » .. ويعود السوط من جديد
.. وكان من المحال أن يتلقى اجابة أخرى .. فالسيف هو سيف الشيخ
عبد الوهاب فعلا .. ولكن فرط الرمان لم يستطع أن يفهم أن سلامه

صادق فى هذه المرة بالذات .. فاستمر فى تصذيبه .. كواه بحديد
عسمى .. واتزع أظفاره .. وكسر ذراعه .. ثم فقا عينيه .. وعند
رقد فوق صدره بالمتعب ليقفا عينه الثانية رأى شفتى الغلام تحركان ..
فايتسم فى ارتياح وقرب أذنه من فم سلامه فسمعه يقول :

- الله .. يخ .. عبد .. د .. الو .. هاب ..

فانتفض فى غضب .. وأغمد المتعب فى العين التى تحدق اليه فى
سداجة .. ثم هب واقفا وأخذ يركل الغلام بقسوة .. فى بطنه ..
ورأسه .. وهو يصرخ فى جنون .. ولكن سلامه لم يحس بشئ من
ذلك .. فقد رأى أمامه الشيخ عبد الوهاب يتقدم فى الحجرة الى سيفه
الملقى على الأرض .. فيحمله .. ويتسم فى وجه سلامة .. ثم يختفى
.. ويختفى معه كل شئ .. منظر الحجرة وسبح فرط الرمان .. وصوت
صراخه .. حتى الالم القاسى الذى كان يدمى عينيه وكل جزء فى جسمه
.. قد اختفى أيضا .. وحلت محله راحة وخدر لذيد .. ثم انطبق جفناه
على الأبد ..

١٨-٦-١٩٥٦

خفۃ سید

كان الغروب رائعا جميلا ، فى السماء تنف من السحاب الأبيض ،
تتلاّ خلال نجوم قليلة ، وفى الارض أضواء الدكاكين ترتدى على أرض
الشارع الضيق ، وأصحاب الدكاكين أنفسهم يجلسون أمامها فى وداعة بعد أن
شربوا الشاي ، وبعد أن صلى المغرب من يصلى منهم ، وكان الشارع هادئا
خاليا من المارة ، الا من رمضان الذى مضى يقطع الطريق فى خطو بطى .
واتق الى دكان عم متولى البقال •

وكان رمضان جديدا فى هذا الحى ، سكنه منذ ثلاثة أيام ، ولم يكن
يعرف أحدا فيه ، لأنه عندما لمح جماعة من الرجال يجلسون أمام صالون
الاسطى مرسى الحلاق أخذ يعد نفسه لالقاء السلام ، فنقل الحقية الجلدية
الصغيرة الى يده اليسرى حتى يغطى اليمنى لترتفع الى جبهته عند التحية ،
وكان فى هذه الحقية أدوات غريبة لا تمت بأوهى صلة الى عمله الرسمى كمجند
كعب ، فلقد كان فيها (سبرتو) صغير ، وعلبة من الصاج لغل الماء ، وزجاجة من
الكحول النقى •• وورقة قطن طوى ، وعلبة من المذن ترقد فيها ثلاث
حقن زجاجية مختلفة الأحجام ••• وعدد من الأبر ••• أغلبها صدى .
وغير صالح للاستعمال •• ولكنها كانت من حيث العدد ذات مظهر مشرف
يثق مع لقب (دكتور) الذى يحرص عليه رمضان بعد الظهر عندما
يبدأ فى ممارسة هوايته •• اعطاء الحقن لأبناء الحى •

ولم يكن رمضان يتشدد فى الأجر ، فالتسلن نعمة كبيرة ،
والقرشان لأبأس بهما ، وليس ثمة ما يمنع من ارجاء الدفع الى أول
الشهر •• أى شهر •• ان ما يئنه ليس المال •• وانما يئمه أن يتبح له
أبناء الحى ، أن يطوح الحقية الجلدية فى يده وهو يمشى ، وأن يصيحوا به

فى أعلى صوت ممكن (افضل يادكتور) ... وهو يعلم أن فيهم من يقولها
ساخرا .. بل لعل الجميع يستسخرون به ، ولكن لا بأس فى ذلك ، ففى
سخرية لذينة على كل حال ، واللقب يملؤه انتشاء وسرورا .

وكان رمضان قد اقترب من صالون الاسطى مرسى ، فأسرعت يده
اليمنى ترتفع الى طربوشه لتميل به الى اليمين قليلا ، واتحدرت الى رقبته
تحسب ياقة القميص الابيض المفتوحة وتطمئن الى أنها تتنى خارج ياقة
الجاكيت فنكسبها أناقة ، وفى نفس الوقت تخفى ما أصابها من تأكل ، ثم
تدلت ذراعه الى جانبه فى استعداد ، وما ان حاذى دكان الاسطى مرسى
حتى قال فى صوت أقرب الى الصياح :

- السلام عليكم ورحمة الله .. !

وفى نفس الوقت كانت ذراعه اليمنى ترتفع الى جبهته لتأكيد
التحية ، ويده اليسرى تطوح بالحقيبة الجلدية فى قوة ، وارتفعت عدة ،
اصوات قائلة :

- وعليكم السلام .. افضل ..

- سلام ورحمة الله .. افضل ..

الكل رد السلام فى ترحيب .. والكل دعاه الى التفضل فى حرارة ،
ورغم هذا أحس رمضان بشيء من الامتناع ، لانه لم يسمع الكلمة التى
كان يود سماعها (افضل يادكتور) .. ولكن امتناعه تبدد سريعا ، فهو
يعلم أن أحد لا يرفقه .. والأيام كفيلة بأن تجلب له الشهرة التى كان يتمنى
بها فى حيه القديم ، وحسبه أن حصل على أول زبون له هنا بعد ثلاثة أيام
فقط من سكناه هذا الحى .

كان ذلك مصادفة ، فعند عودته من المطبعة التى يعمل بها ، مر على

دكان متولى البقل ليشتري خمس سجائر ، فرأى بجوار شوال الارز
غلاما أسمر ، يكشف عن ساق مليئة بالقروح يدهنها بمرهم أبيض ، كان
المنظر يثير الغيظ ، ولكنه تفاوض عن تلك القشعريرة التي اجتاحتها ،
وحول عينيه عن الساق المتقيحة ، ولم يجد ما يثبتها عليه الا وجه عم متولى
الأسمر ، وانتقت عيناه الواسعتان بنظرات متولى الثرسة التي تبعت من
عينيه السوداوين المستديرتين ، فسأله مجابلا :

— ماله ... ؟

وفتح متولى درجا ألقى فيه بالقرشين اللذين ألقاهما رمضان على
البنتك ثم قال :

— حاجة تفلق ... بقى لى جمعتين باقول له روح للحكيم ... روح
للحكيم ... مش عايز ... هوليود والا وتكس ... ؟

— وتكس ... وحسيب وجهه بالشكل ده ؟ ...

فقال متولى وهو يفتح درجا آخر ويتناول السجائر :

— هو النهاردة راح للحكيم ... كتب له مرهم ... وثلاث حقن
بنسولين ...

وما كاد رمضان يسمع كلمة (حقن) حتى انفرجت شفاه عن
اتسامة خفت من شراسة نظرات متولى ، ومهدت للاتفاق بينهما على أن
يتولى حقن الغلام ، نظير ثلاثة قروش للحقنة الواحدة ، يقبضها بعد
انتهاء الحقن الثلاث •

كانت بداية طيبة ، وبعد أسبوع أو اسبوعين على الأكثر تطير شهرته
فى الحى ، وتسمى اليه الزبائن ، ويندو دكتور الحى الجديد كما كان
دكتور الحى القديم •

* * *

ومضى فى طريقه يطوح بالحقية الجلدية فى يسراه ويحىي بيميناه من يمر بهم ، ويتطلع الى وجوههم ببسمة مترددة ، وعين متفحصة ، تنقب خلف قناع السلامة الذى يكسو محياهم ، ويتمتم بين الحين والحين لنفسه .

- ياسلام يادكتور .. الراجل الى هناك ده خرج قوى .. عاوز له كلم حقنة كلسيوم .. ياعبنى على الجذع أبو وش اصفر ده لو خد له دسنة فيتامين ؟ !

ووصل الى دكان متولى ، فوجده يرشف كوبا من الشاي ، ويضبط شفثيه الغليظتين كأنما يمتص شيئا تحت لسانه ، فقال وهو يضع الحقيصة فوق البنك ويسط كفه مصافحا .

- السلام عليكم ورحمة الله ! ..

فندلت شفة متولى السفلى ، ومد له أصابع مرتجفة وهو يقول :

- سلام يا عم .. ! أقعد استريح .. الواد راح مشوار وجاى .. ! ولم يقعد رمضان ليستريح ، وانما استأذن فى غلى الأبرة .. فقاد متولى الى باب منخفض فى أقصى الدكان . واحتاج رمضان الى لحظات حتى ألقت عيناه الضوء الخافت الذى يتسرب الى المخزن ، واستطاع أن يرى ما حوله .. مائدة خشبية قديمة ، وكرسيا استغنى عن رجله الرابعة بالاستناد الى الحائط .. وعددًا من الشوالات والصفائح .. أكثرها قديم فارغ ، وتعرّث قدمه فى كرات من البصل تنارت من شوال قديم ممسدد على الارض ، ومط متولى شفثيه ، ونفخ سطح المنضدة الخشبية بقوة ، فطايرت عنه عاصفة من التراب ، ثم رفع ذيل جلبابه ومسحها قائلا :

- يالله يا عم .. شوف شغلك .. يجعل فى ايدك الشفا .. !

وضاق رمضان بكلمة (يا عم) التى يصر متولى على استعمالها ، فقال وهو يفتح حقيته ليخرج أدواته :

- ياذن الله .. أنا ايدى فيها البركة • كانوا دايمًا يقولو لى يادكتور

انت كلك بركة .. يادكتور فيك شىء لله .. يادكتور ...

فقاطعه متولى وهو ينحنى ليخرج من الباب الواطىء :

- طيب شد حيلك .. أهو الواد زمانه جاى .. ياعم .. !

فأشعل رمضان السبرتو فى ضيق .. ووقف يرقب الماء وهو يقلى ..
ويستعيد ذكرى مجده فى الحى القديم .. واستغرقته الذكريات الحلوة فلم
يتنبه الا عندما سمع فى الخارج صوتًا متباكيًا يخور كالمجل :
- آ آ آ .. والنبي يايا .. دى بتوجع ..

فقال متولى فى شراسة :

- جرى ايه ياواد .. ؟ انت صغير ؟ ادخل خد الحفنه ... أحسن
أفطم رقتك •

فابتسم رمضان فى ثقة ، وأفرغ البنسلين فى الحفنة وبلل قطعة من
القطن بالكحول .. ثم طبع على وجهه الطويل ابتسامة تشجيع ، وانحنى.
لينقذ طربوشه من الاصطدام بأعلى الباب ثم خرج الى الغلام •

ومع أن رمضان كان يتوقع أن يخافه الغلام قليلًا إلا أنه لم يتوقع على
الاطلاق هذا الرعب الذى كسا وجهه .. فجعل عينيه تسمان وتبرزان
الى الخارج وجبهته تنمقد وتبسط فى عصية .. وذراعه تمتد أمامه وفيها
اصبع مسددة الى وجهه وهو يصيح فى قرع :

- هو ده اللى حيدنى الحفنة ؟! آ .. آ .. آ .. !

وبهت رمضان من هذا الاستقبال العدائي ، لم يسبق له أن رأى
الغلام ، وهو واثق أن ليس بينهما عداوة بأى صورة من الصور .. فوقف
فى مكانه عند الباب الواسع متخفيا .. يدها مشرعتان أمامه .. فى أحدهما
الحقنة وفى الثانية القلعة .. وعلى الوجه الطويل ابتسامة التشجيع بعد أن
تجمدت وتحولت الى ابتسامة بلهاء ..! وصاح متولى بالغلام وهو يشير
نحوه :

- ايه ياواد ؟ مالك ؟ مش عاجبك ؟ ما هو جدد زى الورد
أمه ..

فكف الغلام عن الخوار وأخذ يتطلع الى رمضان متفحفا لحظة ..
ثم عادت عضلات وجهه تشنح ، وانطلق الخوار مرة أخرى .. ووجد
رمضان فى نفسه قدرة على الكلام فتمتم :

- ماتخافش ياشاطر .. أنا ايدى خفيفة ..

وخطا الى الامام خطوة واحدة .. ولكن الغلام ارتد الى الخلف
فصاح به أبوه محققا :

- ما تتعدل ياواد انت ياواد .. انت حندخل تأخذ الحقنة والا
أدشدش دماغك ..

- آ آ آ آ آ آ .. دليش دعوة ياقه .. مش واخذ حقن .. هه
ياقه هه ..

وفى تلك اللحظة دلف الى الدكان شاب فى جلباب من الزفيرمسك
فى يده عصا فأزاح الغلام من طريقه جانبا ، وقال لتولى وهو يضع قرشا
على البئك :

- ادبنى بأكو مسل .. مساء الخير •

فقال متولى :

- يا مرحب .. سى محمد •

واستدار ليحضر المسل .. فلمح رمضان الغلام ينسل نحو الباب
ثم يطلق ساقيه للريح فصاح فى فزع :

- الحق الولد جرى •

فقفز متولى من على البنك وهو يصيح :

- بتجرى ياواد .. طيب .. والله لاقطع رقبتك الليلة دى •

واختطف المصا من يد سى محمد وانطلق بها خلف الغلام فى الشارع
وهو يصرخ :

- وقف عندك .. امسك يا جدد .. حلق يا مرسى على الواد .. •
او عى يزوغ منك يا مصطفى •

وتحرك رمضان الى باب الدكان ، ووقف يرقب المطاردة .. وكانت
ذراعاها مازالتا مشرعتين بالحقنة والقطنة ، ولكن الابتسامة كانت قد اختفت
من الوجه الطويل وحل محلها وجوم أبله .. ماهذه الفضيحة يا رمضان .. ؟
أول زبون لك فى الحى يفضحك بهذا الشكل .. ؟ وماذا فىك حتى يخاف
الغلام الى هذه الدرجة .. ؟ ان يدك خفيفة .. والله يدك خفيفة جدا ..

والفت الى سى محمد الذى كان يرقب المطاردة بقلة اكترات ، وأخذ
يقول له فى همس :

- دا أنا ايدى خفيفة .. والله خفيفة خالص .. ما حدش يحس بها

وكانت المطاردة قد انتهت بالامساك بالغلام فانهال عليه أبوه بالمصا

وفامت قيامة الشارع • وغادر الناس الوداعون دكاكينهم ، وتجمعوا حول
حتولى وابنه وحالوا بينهما ، ثم عاد الموكب الى الدكان •• متولى يجر ابنه
فى يده ، والمصا فى يده الثانية •• ووراعهما حشد من أهل الشارع ،
يضم الرجل الحُرْع الذى يحتاج الى حقن الكالسيوم ، والرجل ذا الوجه
الاصفر الذى يحتاج الى دسنة حقن فيتامين •• وكل زبائن رمضان فى المستقبل •

واستقبلهم رمضان بالحقنة فى يمينه والقطنة فى يسراه •• وعلى
الوجه الطويل محاولة لابتسامه ، وأخذ يغمغم :

— أنا ايدى خفيفة •• والله خفيفة •

ولكن صوته ضاع بين لفظ القوم وضجيجهم • كان الغلام يخور
كالمجمل ، ويفرك عينيه بأصابعه ليمسح دموعا لم تسب بعد على خديه •
وكان متولى يصيح به متوعداً :

— موتك الليلة دى حيكون على ايدى ان شاء الله !

وكف الغلام عن فرك عينيه ، وأخذ يتطلع الى رمضان ، وساد
الصمت الجميع فى ترقب ، وأخيراً انطلق الغلام قائلاً :

— مش عاوزه اللي يدبني الحقنة •• أروح المستشفى بكره أخذها
وبلاش الجلدع ده •

وسقط قلب رمضان بين ضلوعه •• وارتشت يده التى تمسك
بالحقنة •• وحاول أن يتكلم •• فأخذ يغمم :

— دا انا ايدى خفيفة •• والله باجماعة خفيفة خالص •

ومرة أخرى ضاع صوته وسط الضجة •• فقد عاد متولى يضرب

أبنة فى قسوة ، وتدافع الجمع ليجول بين الغلام والعصا ، وانطلقت أصوات
صحيح :

– خلاص بلاش يأخذ الحقنة من الجدع ده •

– خليه يروح المستشفى مادام الجدع ده مش عاجبه •

– بلاش الجدع ده •• وانا أجيب له واحد كويس •

كان المتكلمون هم زبائن المستقبل •• يامصيتك يارمضان ••
يادكتور رمضان •• سمعتك فى خطر •• وكل هذا من تحت رأس هذا
الغلام اللعين •• كان أسود يوم فى حياتك لما سبعت لان تعطيه الحقن •
وصاح متولى فى الجميع وهو يشير نحوه بالعصا :

– ماله ده ••؟ مش عايز يدى له الحقنة ليه •• ماهو جدع غلبان
ومنكسر أه •• طيب والله •• ثلاثة بالله •• ماهو واخذ حقن الا منه •

وتضعض رمضان •• فتراخت ذراعه بالحقنة والقطنة •• وأحس
بجبات من العرق تنفذ من تحت طربوشه وتحدرد الى جبهته •• لقد جاء
ليسمى للقب دكتور •• فخرج بقلب عم •• ثم جدع •• وأخيراً انتهى
به المطاف الى انه غلبان ومنكسر ••! وكان يفكر فى الانسحاب عندما
سمع الغلام اللعين يقول :

– آ •• آ •• دا خذت منه حقنة مرة واحدة وقت رجل جمعة •

كذاب •• والله كذاب •• انه لا يعرفه ••! وأراد أن يصرخ بهذه
الحقيقة فى وجه زبائن المستقبل •• ولكنه لايدرى ماذا أصابه •• فعندما فتح
شفته ليصيح •• لم يصدر منها الا همهمة خافتة متخاذلة :

– دا انا ايدى خفيفة •

ولم يعبأ به أحد .. وأخذوا ينظرون إليه في صمت وفضول ..
وأخس تحت وقع عيونهم يانكسار وهوان ، فلم يستطع أن يعترض - كما
كان ينوي - عندما دعاه متولى إلى المودة للمخزن ، فدفق إلى الدكان في
تخاذل ، ونسى أن ينحني لينفذ من الباب الواطئ .. فاصطدم طربوشه
بأعلى الباب وانزلق إلى مؤخرة رأسه انزلاقاً شديداً ، ورأى متولى قد حمل
الغلام الذي استسلم ، وألقاه فوق المضدة الخشبية ثم كشف عن فخذ .
وبدأ الغلام يخور كالسجل فلطمه أبوه على رأسه في عنف فسكت ، وساد
صمت متحضر .. فمد رمضان يده بالقطة وذلك فخذ الغلام بالكحول ،
ثم مد يده بالحفنة .. ولكنه عاد يردّها بسرعة ، فقد كانت ترتجف ، والحفنة
تراقص بين أصابعه .. كان قد فقد السيطرة على أعصابه .. وهو يعرف
تماماً أنه لو غرس الابرة في فخذ الولد وهو في هذه الحالة فسوف تنكسر
لا محالة .. كان في موقف حرج لم يسبق له أن مر به في حياته .. فالغلام
يرقد أمامه في استسلام ، ومتولى يرقبه بعين الصقر ، وزبائن المستقبل
يقفون في الخارج ليحكموا له أو عليه ، وهو لا يستطيع أن يفرس الابرة
في فخذ الغلام .

وأراد أن يضع الوقت حتى يستعيد السيطرة على أعصابه فخلع
طربوشه ووضعه على الكرسي الأعرج .. ومسح عرقه بكم جاكته ..
وأخذ يبلل القطة بالكحول ، ويشاطأ في ذلك انتظاراً للفرج .. وأخيراً جاء
الفرج في صوت يصيح في الدكان :

- ياقه يا عم متولى .. هات ياكو المعسل .. أنا حاسستى سنة والا ايه؟
كان سى محمد قد مل الانتظار فقال متولى :
- لا مؤاخذه ياسى محمد .. حاضر ..

وترك الغلام مع فريسته وجها لوجه ، بعد أن تهدده بالضرب ان عاد

الى الصباح ، وما كاد الغلام يشعر بخروج أبيه حتى أدار رأسه ونظر الى رمضان .. والتقت عيونهما .. وخيل لرمضان أن في عينيه خبثا شديدا ، فحاول أن يتسم له مستعظفا .. وبدأ يرت على ظهره ، ويهمس له في ذلة :

- أنا ايدى خفيفة .. واقه مافيه حاجة حتوجحك .. مش حتحبس بحاجة أبدا .. دأنا ايدى ..
ولكن الغلام قاطعه في شراسة يخالطها احتقار :
- ماتخلصنا بقى وبلاش غلبة ..

وأشدت ارتباك رمضان .. وتضاعف اهتزاز يده .. بينما رقد الغلام وأخفى وجهه بين ذراعيه في انتظار .. ومد رمضان يده بالابرة .. ولم تكد تمس جلد الغلام ، حتى رفس بساقه في الهواء وصرخ .. فجفل رمضان ، وقفزت الابرة من موضعها وشرعت تتراقص فوق فخذ الغلام الذى تعالت صرخاته حتى صاح أبوه به من الخارج :

- جرى ايه ياواد .. أجيلك تانى ؟

فكف الغلام عن الصراخ ، وعاد رمضان يدلك فخذَه بالكحول .. ثم مسح عرقه بكم جاكته ..

واستعان بالله .. ومد ذراعه بالابرة .. فانطلق الغلام يصرخ .. ويرفس .. وأخذت الابرة تتراقص بين أصابع رمضان ، فرد يده بسرعة وعاد يمسح عرقه بكم الجاكته ..

كانت المشكلة لاحل لها .. لو غرس الابرة لانكسرت .. ولضربه متولى بدلا من أن يضرب الغلام ، ولو امتنع عن اعطائه الحقنة لسخر منه زبائن المستقبل التجمهرون في الخارج .. ولفقد الى الأبد كل أمل في

لقب دكتور .. وتلفت حوله باحثا عن مخرج .. فرأى المخزن مصيدة محكمة الاغلاق .. فارتد بصره فى يأس الى المنضدة .. ووقفت عيناه على الكرسي الأعرج .. ورأى الطربوش .. فوجد المخرج .. ولكنه مخرج صعب .. يحتاج الى خفة يد .. ولو انكشف ...

وتدفق العرق على جبينه .. وتسلسلت قطرة منه الى عينيه فألهتتهما ، فمسح جبينه بكفه .. واستقر رأيه .. وبدا ترتجف وخز الغلام بالابرة وقبل أن يتمادى فى صراخه اللعين أسرع بافراغ الابرة فى الطربوش .. ثم ذلك موضع الوخز بالقطة وقال فى تعلم :

— خلاص ياسيدى .. حسيت بحاجة بقى ؟

والثفت الغلام اليه فى دهشة .. والتقت نظراتهما مرة أخرى ، ولكن رمضان لم يستطع أن يواجه عيني الغلام ، فحولها سريعا ، وأخذ يجمع أدواته ويضعها فى الحقيبة الجلدية . وكان لا يزال يرتجف ، فسمع الغلام يقول :

— مالك بتترعش ليه .. انت ما ديتش حقن قبل كده ؟

وكان فى صوته تشف .. فأطلق الحقيبة بسرعة .. وتناول طربوشه فإذا بالسائل الأبيض يترجرج فى قاعه ويكاد ينادى الصيون لتراه .. فأسرع بوضع الطربوش على رأسه .. وضغطه فوق جبهته بشدة .. ثم حمل الحقيبة وألصق على شفتيه ابتسامة .. وخرج من المخزن وهو بهتف :

— مش قلت لكم ايدى خفيفة ؟ شتم خفيفة ازاى ؟

ولكنه كف عن الكلام بفترة ، ووقف يحرق فى باب الدكان بذهول .. لم يجد زبائن المستقبل .. لقد انصرفوا قبل أن يشهدوا خفة يده .. ثم

يكن هناك الا متولى يجلس الى الباب يمصص بشفتيه كأنما يمتص
شيئا تحت لسانه •

وأفاق من ذهوله على متولى يقول له

- امسح عرقك ياعم قبل ما يطسك الهوا •• ايه ده •• انت بتعرق
ملح ؟ ! ••

فأسرع بكفه الى جيبته ، ومسح السائل الابيض الذى تسالل
على جبينه •• وكبس طربوشه بعنف فى رأسه •• ثم خرج الى الشارع
الخاوى •

الشارع الأبيض

- الميتين يا صاحب النصيب ..

- معانا أمواس ومحافظ ..

- فانات .. شرابات ..

- ورنيش .. بويه ..

- الخمسة .. اسفاف .. البريمو ..

ووسط هذه الدوامة من نداءات الباعة .. ألقى عباس بنفسه الى
مقعد ... وألقى الى المضدة ارخامية أمامه بالحقيبة الصغيرة التي يحملها
فى يده ، وكان فى هذه الحقيبة رداء منزلى أحضره معه من الاسكندرية
استعدادا لقضاء ليلة فى القاهرة .. ليلة واحدة فقط يعود بعدها الى
الاسكندرية . ولكنه لم يعد فى حاجة الى هذا الرداء الآن .. لقد قرأ أن يعود
من فوره الى الاسكندرية .. حتى هذه الليلة الواحدة لم يعد فى حاجة اليها
وكل ما عليه أن يفعله الآن هو أن ينتظر ساعتين فى هذا المقهى المواجه
لمحطة السكة الحديد حتى يحين موعد أول قطار الى الاسكندرية فى الساعة
الثامنة .

وصفق تصفيقة خفيفة يدعو بها الجرسون .. ثم غرق مع أفكار
قائمة ينتحها من أغوار بشر من الأسى حقيقة فى نفسه .. بشر كانت
لافتاً تجذبه الى أعماقها المظلمة رغم ضجيج المقهى الذى يحيط به ورغم
نداءات الباعة وتتحميمهم عليه .. كل يريد أن يبيعه أى شئ وبأى ثمن ..
غير مبالين بوجومه وشرود نظراته عنهم . وعن كل ما يحيط به فى المقهى ..
والحق أنه كان يحس بهداع عنيف يكاد يحطم جدران جمجمته ..
صداع لا يدرى له سبب .. ولا يدرى متى بدأ يشعر به .. وأن كان واثقا
كل الثقة بأنه وصل الى فيلا أحمد أفندى عاصم مرحا سعيدا متفائلا ..

- ورنيش ! بويه ..

وقبل أن ينتبه عباس كان مسح الاخذية قد وضع صندوقه على الأرض ، وأمسك بحذائه .. وهم عباس بأن يعترض ، ولكنه عدل عن ذلك .. اذ وجد فيه شيئا من التسلية قد يصرفه عن هذا الصداق الضيف فمضى يرقب الرجل وهو يعمل فى حذائه .. حتى أصبح لامعا برفا كالمرآة خلال لحظات قليلة .. ففقد قرشا .. ثم عاد الى شروده ... كان يسأل نفسه: أمن الممكن أن تصبح حياته لامعة برفاة كهذا الحذاء! انه فى حاجة الى يد تعمل فى مستقبله كما عملت يد هذا الرجل فى حذائه .. يد تنفض عنه الفقر وما ينتج عنه من متاعب ومشكلات .. لقد ظن خلال الأشهر الماضية أن هذه اليد هى يد أحمد أفندى عاصم جارهم القديم اشرى ، وصديق والده .. فسعى اليه يطلب يد ابنته ملكة .. وحضر الى القاهرة اليوم ليحقق هذا الغرض .. ولكن كل شيء انهار فجأة ، ولم يترك امامه مجالا للتردد ، فينبغى - بعد ما حدث - ان يعود الى الاسكندرية لما جاء منها ، ثم يسرع فى البحث عن يد أخرى تنفض عن حياته تراب الفقر ومتاعبه ، وتجلو عنها كل ما يطفىء بريقها من المشكلات ...

واتبه عباس من شروده على الجرسون وهو ينحنى امامه فى معطفه الأبيض ، ويقول فى أدب :

- تشرب ايه سيادتك ؟

- مقبوط .. واحد مقبوط .. !

قالها عباس وهو لما يفق من شروده تماما ، وهم الجرسون بالإبتعاد صائحا صيحته التقليدية ..

- متريو ... !

ولكن عباس عاد يناديه قائلا :

- اسمع من فضلك ..

- أيوه ياسعادة اليه .. ؟

- ادبنى اسبرينة وكباية فيه الأول .. بس قوام !

فقد اشتد الصداع فى رأسه حتى تحول الى طرقات توج جهته رجاء لا يهدأ ولا يرحم . ان من المستحيل أن يكون ماحدث منذ ساعة هو مصدر هذا الصداع الرهيب .. نعم .. من المستحيل أن يكون كذلك .. فكل مافى الأمر أنه جاء ليخطب ملكة بنت أحمد أفندى عاصم .. ثم عدل عن هذه الخطبة بمحض ارادته ومطلق حريته .. وهو غير حزين لما حدث .. اذ لا مجال للعاطفة فى هذه الخطبة .. أو على الأقل .. لقد جعل للعاطفة المحل الثانى بعد المنطق والتفكير الرياضى السديد .. ان هذه الخطبة بدأت عملية حسابية ليس غير .. مجرد تصميم هندسى رسمه مستقبله كما يرسم أى تصميم لفيلادلفيا او عمارة .. وهو ن يعدل فى هذا التصميم .. كل مافى الامر أنه سيفير « المونة » التى سوف يستعملها فى بناء مستقبله .. كانت ملكة هى المونة .. فعليه الآن أن يستبدل بها مونة أخرى .. وانواع المونة كثيرة أمامه .. انها ملء البصر .. وملء اليد .. فى الاسكندرية وفى القاهرة ، وفى غير الاسكندرية والقاهرة من البلاد اتى له فيها أقباء أو أصدقاء .. كل ماعليه أن يبحث من جديد .. وأن يكتب الى أقبائه وأصدقائه ليحثوا له عن « مونة » جديدة .. (أو عن عروس جديدة ..) فليس من اللائق أن يطلع هؤلاء الأقباء على وجهة نظره هذه فى الزواج .. ان امه نفسها تنظر الى هذا الأمر نظرة عاطفية خالصة .. لقد كاد يدخل معها فى مناقشة حامية عندما أنبأها أول مرة برغبته فى الزواج .. فقد قالت له ووجهها يرقص بالبشر :

- دا يوم المنى يا عباس .. أنا حاقلب لك الاسكندرية كلها .. وحافرز

لك بنتها بنت بنت .. لحد ما اختار لك أجمل واحدة فيها ..

- مش مهم قوى انها تبقى أجمل واحدة .. المهم انها ..

نقاطه في لهجة من تعرف رغبته الدفينة :

- طبعا لازم تكون من أحسن عيلة ؟!!

- ولا دى كمان .. المهم عندى انها تكون دفيانة .. يكون عندها

قرشين ! ..

فنظرت اليه في استنكار هادى . وقالت عاتبة :

- يا بنى ده كلام قوله برضه .. ؟ .. المهم الأصل والأخلاق .

- يا ست الكلام ده بطل خلاص .. احنا فى دنيا كل حاجة فيها

القرش ! ..

فاشتد استنكارها .. وضربت صدرها بيدها وهى تقول :

- عباس ! .. ياندامتى ! .. انت يا بنى اتنهيت فى عقلك ؟ .. بنى

هى دى تربيتى فيك ؟ ..

ولولا ان عباس أدرك أن مثلها ومثله لا يلتقيان .. فهما من جيلين مختلفين .. تربى جيلها على أنقاض من حضارة الشرق ومن مثل القرون الوسطى .. وتربى جيله على دعائم من حضارة الغرب ومن مادية القرن العشرين .. لولا أنه أدرك ذلك لاشتبك معها فى مناقشة كانت ستؤدى حتما الى تحطيم أملها فى انها أنجبت فأحسن تربية ما أنجبت ..

ولكنه لم يشأ أن يفسد عليها أحلامها فى أخريات أيامها .. فتراجع عن رأيه ، وزعم لها أنها أخطأت فهمه ، فقال لها :

- اتنى مش فاهماتى .. أنا أقصد ان ماهيتى ماتكفيش أعيش اللي حتجوزها عيشة مناسبة الا اذا كان لها ايراد يساعد .. مش كده والاايه ؟

- ايراد ايه يابنى ؟ .. المهم ربنا يدى لك انت وهى راحة البال ..
هو المرحوم أبوك لما اتجوزنى كانت ماهيته ايه .. ؟ خمسة جنيه .. وأنا
لا عندى ايراد ولا يحزنون ! ..

ومضت أمه بى حديث طويل ثم يكن يعنيه فى شيء .. فهو واثق
أنها تعيش فى سراب ذكريات جيل انقضى بمتله وبطرائق حياته ..
وانها بن نفهم منطقته الرياضى الذى تمود أن يقيس به حياته .. فمنذ
تخرج فى كلية الهندسة تعلم أن يستبعد من التصميمات انى يرسمها
سببه لى المشاعر والمواقف .. فلا يقيمها الا على الحقائق المادية ..
وكان فى حياته حقائق عليه أن يشيد مستقبله على أساسها .. وأول هذه
الحقائق أنه فقير مات أبوه عبد الجواد أفندى .. وكان موظفا يتقاضى فى
آخريات حياته مرتبا لأبأس به .. ولكن موته حول هذا المرتب الى معاش
ضئيل .. وحتى هذا المعاش قد انقطع قبل أن يتم دراسته فى كلية
الهندسة بجامعة الاسكندرية ، فاضطر أن يستعين بموارد مبهمة ليواصل
الدراسة .. اشتغل كاتبا حينا فى مصنع بلاط .. وسمى فى الشوارع
مرة كسمسار مساكن خالية .. ودخل صالات المزادات أياها ليتجر فى
الاثاث القديم .. حتى حصل على البكالوريوس والتحق بوظيفة مهندس
فى بلدية الاسكندرية ... هذه حقيقة أولى .. ثم انه طموح ..
والوظيفة لا تعنى الا الحياة فى حدود ضيقة .. أما الآفاق المتسعة للعيش
الرغد فهى فى العمل الحر ، وهو مهندس ، فعليه أن يكون مهندسا ومقاولا
فى آن واحد .. ومن ثم يتدفق المال بين يديه ، فيمتلك عربة ... وفيلا
.. ويتحكم فى مصائر عشرات من الناس بدلا من أن يتحكم فى مصيره
عشرات من الناس .. ولكن العمل الحر يحتاج الى رأس مال يبدأ به
وأيسر السبل - وأضمنها - للحصول على رأس المال هو أن يتزوج بفتاة
ثرية .. نعم .. نعم .. فالفاتة الثرية هى ، المونة ، التى شيد بها مستقبله فنظّل
عشرات ممن يعرفهن .. وانتهى الى ملكة بنت أحمد أفندى عاصم ..

وعندما انتهى الى هذا رأى صارح أمه به .. فلمع الفرح فى عينها اللتين
أحمد برقمها المرض والشيخوخة .. وهتفت :

- ملكة بنت نازج هانم .. ٩٠٠ دى ست البنسات .. وأما ست
البنات ! .. دى زمانها بقت عروسة تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطر حرك ..
فضحك عباس لحماسها الساذج وقال :

- وايش عرفك .. ؟ دا انتى ماشفتيناش بقى لك سبع سنين على
الأقل ! ..

- دى من صغرها زى القمر يا عباس .. أهى دى صحيح العروسة
الى تنفلك .. وأما نازج هانم صاحبتى وحبيبتى الروح بالروح ...
وأبوها أحمد أفندى عاصم صاحب المرحوم أبوك .. دول كانوا مايترقوش
عن بعض ..

ومضت أمه تعدد حسنات ملكة .. ولم يكن يرضيه من هذه الحسنات
شيء ، فقد اختار ملكة لمميزات لاتخطر على بال أمه .. أولها أن آباها
ثرى من أصل تركى .. وثراؤه ليس فاحشا الى الحد الذى يجعله يترفع
عن مصاهرته .. وثروته - كما كان يقدر - لاتتجاوز فيلا صغيرة فى
حلمية الزيتون ، وبضعة أفدنة ، ورصيدا فى البنك لاتتجاوز الألف جنيه
الاقليلا . وثروة هذا قدرها هى أنسب شيء لتحقيق طموحه .. فهو
لا يريد الا مبلغا يبدأ به العمل الحر . ثم ان أحمد أفندى عاصم كان - كما
تقول أمه - صديقا لوالده ، وقد نشأت هذه الصداقة خلال السنوات التى
سكنوا أثناءها فى حلمية الزيتون .. فكان أبوه وأحمد أفندى عاصم من
أعيان الحى : أولهما لوظيفته .. وثانيهما لثروته - رغم تواضعها ولاصله
العريق .. ولقد نقل أبوه الى الاسكندرية منذ سبع سنوات .. فافترق عن
أحمد أفندى عاصم واقطعت أخباره عنه .. فإذا تقدم عباس للحلبسة

ملكة فسوف يستقبله أحمد أفندي عاصم على أساس من صداقة القديمة
لأبيه ، وعلى أساس من سمعته كابن عين من أعيان الحى .. لن يسأل
عنه .. ولن يعرف شيئا عن الموارد المهمة التى لجأ إليها بعد وفاة أبيه .

كان هذا هو ماجمله يفضل ملكة على غيرها . وإذا كان لابد من
عاطفة .. فلا بأس فى أن ينفخ فى رمد خاب لحب قديم كان بينهما ..
فقد كان يحبها وهو تلميذ فى الثانية الثانوية .. كانت تفتنه بشعرهما
الناصع وجسدها الريان .. وبشعرها الأصفر الوهاج الذى يسدل على
ظهرها حتى وسطها .. وكانت هى تحبه أيضا .. وكثيرا ما قضا
ساعات حلوة عندما كانت تحضر مع أمها لزيارة أمه .. كاتا يمرحان
كثيرا .. ويضحكان كثيرا .. وربما تشاجرا أيضا .. وأن كان
تشاجرهما حلوا رقيقا .. خصوصا إذا أسرف فى الفكه على لكنة أمها
التركية .. انه ليتذكر الآن يوم وقفت أمها نازج هاتم فى المطبخ تعلم أمه
كيف تطبخ الحك .. ووقف هو معها ليتفرجا عليهما .. فلم يملك
نفسه من الضحك عندما سمع نازج هاتم تقول فى لكنتها التركية :

- خرط بصل تمام ست أم عباس .. صفى طماطم تمام ست أم عباس ..
.. ولع تحته النار خفيف خفيف .. ييجى يمك عفارم ست أم عباس ! ..
وأغضب ضحكه ملكة فقالت له عاتية :

- تضحك على نينة ؟ .. مش عاجبك كلامها ؟ ..
واستهواه غضبها الطفولى ، وأراد أن يمعن فى اغاظتها ، فقال مقلدا
لكنه أمها :

- خرط بصل تمام ست أم عباس .. صفى طماطم تمام ست
أم عباس ..
واغاظت ملكة ، ودقت الارض بقدميهما فى عصبية وهى تقول
مهدة :

- بتزوج على نينة ؟!! .. والله لاقول لها !.. والله لاقول لها !..
هه !.. ولم يبا بتهديدها ، ومضى فى تقليد أمها :

- ولع تحته نار خفيف خفيف .. ييجى يملك عفارم ست أم
عباس ..

وكانت ملكة تصيح بين كل مقطع مناديه أمها :
- نينة .. نينة .. !

واجتذب ضياحها وضحك عباس انتباه أميهما ، فسألت نازج هانم :
- فيه ايه ملكة .. ؟ .. مالك .. ؟ ..

وأدرك عباس أن المزاح سينقلب الى علقه ساخنة من أمه ، فهمس
للكة مستعظفا :

- ملكة .. اوعى تقولى .. اوعى تقولى لها .. حازعل منسك ..
حاخاصك !..

وعادت نازج هانم تسأل ابنتها :

- ماتكلمى بنت .. ؟ .. عايزة ايه ؟

فناد عباس يهمس لللكة :

- اخص عليكى .. عاوزانى انضرب علقه ؟ ..

وعندئذ لاح فى عينها الصغيرتين جزع صبيانى حلو سعد به سعادة
طاغية .. وكررت أمها سؤالها فى حدة ، وترددت ملكة قليلا ثم قالت :

- عاوزة قرش أشتري شكولاته أنا وعباس ...
واضجرت نازج هانم ساخطة :

- خرميس .. أدب سيس ..

وأغرقت أمه فى الضحك وأعطتهما قرشا ، فاطلقا معا الى الشارع
ضحكان ..

كم كانت تحبه .. وكم كان سعيدا بحبها .. وان كان الزمن ..
والسن .. والبعد .. قد تآزرت جميعا لتقضى على هذا الحب .. الا أنه
- وقد احدى بمنطقه الهندسى الى أنها أفضل مونة يشيد بها مستقبه - قد
أمضى الايام السابقة ينفخ فى الرماذ الحبابى حتى رد اليه بعض الوهج ..
أو خيل اليه ذلك .. فركب القطار من الاسكندرية الى القاهرة صباح
اليوم فوصل فى الساعة الثالثة والنصف وأخذ أول قطار الى حلبيّة
الزيتون .. وفى الساعة الرابعة كان ينحدر الى الشارع الأبيض فى
طريقه الى فيلا أحمد أفندى عاصم التى تقع فى نهايته ..

وجاءه الجرسون بالقهوة والاسبرين ، فابتلع قرصا ، ثم أشعل
سيجارة وبدأ يرشف القهوة فى بطء وهو يستعيد ما مر به منذ انحدر
فى الشارع الأبيض .

سار يتطلع الى ما حوله ، وقد جاش فى صدره حين دافق الى مرتع
صباه ومغنى هوا .. فهو قد نشأ فى هذا الشارع الأبيض صبا .. وانطبت
فى عينيه منذ صباه صور المنازل التى تمتد على الجانبين ، وطالما كان يحجب
من السر الذى طبع هذا الشارع باللون الأبيض دون شوارع الدنيا ! ..
كان يظن أن بياضه يرجع الى الأحجار الجيرية التى شيدت منها
منازله .. واستعملت فى رصف الطريق نفسه .. ولكنه الآن - وقد عاد
اليه بعد سبع سنوات - يرى البياض يغمر الشارع رغم أن الأحجار
الجيرية مطلية بالألوان متباينة ، ورغم أن أرض الطريق أصبحت مرصوفة
بالأسفلت ... ولكن الشمس فى هذا الشارع كانت ساطعة ناصعة

تمس أشعثها السحرية كل شيء فى الشارع ثم ترد عنه وقد أحالته
أبيض صافيا ..

ومضى فى طريقه وهو يحس بأن كل خطوة يخطوها تمود به الى
معلم من معالم الصبا الفات .. ففى هذه الحارة « حارة عرفة » كان يلعب
بالكرة الشراب مع صديقه حامد .. وكان يشتري الحلوة فى طريقه الى
المدرسة من هذا البقال الذى يراه الآن بجلبابه .. نفس الجلباب الذى
الخطوط المريضة .. ونفس الطاقية الصوف الطويلة .. ! وهذه القهوة -
قهوة الأرنؤوطى - كان كثيرا ما توفده أمه اليها ليدعو أباه كلمسا
احتاجت اليه فى أمر ما .. وكان أبوه كثيرا ما يراوغه حتى تنتهى عشرة
الطاولة التى يلعبها مع أحمد أفندى عاصم ، فهو يلقى الرد صائحا :

- دش .. دش ياتهر .. عاوز ايه ياواد ؟

- نينة عاوزاك .. !

- طيب ديش .. ! .. عاوزانى ليه ؟ .. سه يك ؟ .. أما زهر تن

صحيح .. ! .. ياواد عاوزانى ليه .. ؟

ويضحك أحمد أفندى عاصم ساخرا ويطلق الطاولة ويقول :

- خلاص العشرة .. سيب طاولة ياغشيم .. وقوم كلم حريم ..

انه ليتذكر كل هذا الآن وكأنما حدث أمس .. كل خطوة يخطوها
فى الشارع الأبيض تتحدى السنوات السبع التى انقضت .. فتبت
الذكريات قوية عارمة من أعماق الماضى .. فتمثل حاضرا دافئا
ناضيا بالحياة ..

واقرب من البيت الذى كانوا يسكنونه ، فحقق قلبه وهو يتطلع الى
نوافذه .. لم يتغير فيه شيء .. حتى ذلك اللوح الزجاجى الذى كسره وهو

صبي .. لم يستبدل به غيره حتى الآن .. وهذا البيت الصغير الوضيع
الذى يقع على ناصية حارة رعوف .. انه بيت صديقه وزميل دراسته
حامد .. ترى كيف حاله الآن ؟ .. ان آخر ما علمه عنه ٤ أن أباه
عجز عن الانفاق عليه وهو فى السنة الثانية الثانوية بسبب مرض
أفغده عن العمل ، فاقطع عن الدراسة .. ولجأ أبوه الى أحمد أفندى عاصم
ف توسط له حتى التحق عاملا باليومية بالسكة الحديد . ولقد أوشك هذا
التغير الذى طرأ على حياة حامد ومستقبله أن يصفى وشائج الصداقة
القوية التى كانت تربطهما ، وخاصة عندما فرح حامد بالترتب الذى
يقتضيه ، وأحس بأنه أصبح رجلا يتكسب ، فامتنع حيناً عن أن يلعب
الكرة الشراب فى الشارع معه ، وكان لا يفتأ يردد له ناصحا :

- يا عباس ما يحشش ... أحنا مش صغيرين ... أحنا بقينا
رجاله .. !

ولا يشعر عباس بهذه الرجولة الجديدة فيقول له مفريا :
- ما يحشش يا حامد ولا خايف لا غلبك ؟ ..

- يا جدد بلاش لعب عيال ..

- انت الى ما بتعرفش تلعب ..

- يا أبني ... أنا راجل موظف فى الحكومة دلوقت .. مش بتاع
شوارع ولا كرة شراب .. !

وكان عباس يضيق بهذه اللهجة الجديدة من صديقه .. ويحس
فيها بنوع من التعالي والتكبر .. الا أن هذا - لحسن الحظ - لم يدم طويلا ،
فبعد أسابيع قليلة ضاق حامد نفسه بشخصيته الجديدة ، وتغلبت عليه
نوازع الحميا ، فعاد اليه يلاعبه ويسامره .. وظل الود بينهما متصلا حتى
سافر مع أبيه ٤ الى الاسكندرية . ألا يحسن به أن يمر بيت حامد الآن

فسأل عنه ؟ انه يحس يحين الى رؤيته فعلا ، ولكنه جاء لمهمة تشغل عليه
فكره .. فليرجى زيارة حامد حتى ينتهى من مقابلة أحمد أفندى عاصم
ويخاطب اليه ملكة ، ويطمئن الى أنه حصل على المونة التى يشيد بها
مستقبله ..

وعندما اقرب من فيلا أحمد أفندى عاصم فى نهاية الشارع الأبيض
لاحظ أن شيئا من البلى قد تطرق اليها ، فلون جدرانها قد استحال باهتا ..
وتساقطت بعض الاحجار من سور الحديقة .. ونسجت العناكب خيوطها
على بعض الزينات الخارجية .. ولكن .. أى شىء لم يتطرق اليه البلى ..
ألم تبهت علاقة الود والصداقة التى كانت تربط أسرته وأسرته احمد أفندى
عاصم .. ألم تسج العناكب خيوطها على الحب الذى كان يربطه بملكة ؟

ودلف من باب الحديقة ... وصعد الدرجات الرخامية التى تصل
الى باب المبنى .. ثم قرع الباب وانتظر ... وأحس بنفضات قلبه تتابع
فى خفقها .. وشعر بأنفاسه تلهث فى صدره .. كان مضطربا قلقل ..
ترى كيف يستقبله أحمد أفندى عاصم .. ؟ هل سيتذكره فورا ؟ ترى
كيف تستقبله ملكة ؟ أما زالت تذكر جبهما القديم .. وكيف سيقع
نبا خطبتها من نفسها ومن نفس أمها .. ؟ وكيف .. وكيف .. ثم فتح
الباب .. ووقف عباس دهشا أجمته المفاجأة .. كان أمامه آخر من يتوقع
رؤيته الآن .. حامد .. بلحمه ودمه .. وفى رداء منزلى من الحرير
الأنيق .. !

رائق من الدهشة على حامد وهو يماقه هاتفا :

— أهلا عباس .. !

فتمتم فى ذهول :

— حامد .. ؟ !

ثم تدارك نفسه فبادل حامد العناق وقال :

- ازيك يا حامد .. !

- ازيك انت .. ؟ .. فينك وفين أيامك ؟ .. تعال .. افضل ..

ثم قاده الى حجرة استقبال أبنائها جديد غير ما ألف أن يراه منذ سبع سنوات أيام أن كان يأتي مع أمه وأبيه الى هنا .. فجلس حائرا مضطربا يتساءل ماذا يفعل حامد هنا .. ؟ .. وفي ثوب منزلي .. ؟ أتراه سبقه وتزوج ملكة .. ؟ ولكن هذا مستحيل .. مستحيل .. كيف يرضى أحمد أفندي عاصم بهذا الزواج غير المتكافئ .. ؟ فحامد عامل باليومية في السكة الحديد وأحمد أفندي عاصم هو الذي توسط بنفسه لتعيينه .. وهو لا يملك عقارا ولا أصلا عريضا يرضيان عنجهية أحمد أفندي عاصم التركية .. ؟ أتراه حقق هذا الزواج بأسلوب ملتو .. فترك أحمد أفندي عاصم جانبا واستغل سذاجة ملكة وطهره .. انه لا يعرف في حامد هذا اللون من الذئب ، فضلا عن أنه ليس بالجميل الفائن ولا باللبق الذكي الذي يمكن أن يملك على ملكة قلبها .. فكيف حدث هذا .. ؟

كانت هذه الأسئلة تعصف بذهنه فلا يجد لها جوابا .. وظل يحدث في حامد ببلاهة ولم يفهم حرفا من الحديث الطويل الذي انطلق فيه ، الى أن سمعه يسأله :

- انت خلصت الدراسة ولا لسه .. ؟

فقال وهو يتزعزع من فمه كلمات متثرة :

- خلصت هندسة السنة دى بس ..

- لا .. يبقى أنا أشطر منك بقى .. طول عمري أشطر منك

ياواد .. أنا خلصت الحقوق السنة اللي فاتت ..

- الحقوق .. ؟ ! .. انت مش كنت في السكة ..

فقاطعه حامد :

- أيوه يا أخى .. ذاكرت وأنا بأشتغل فى السكة الحديد .. انت
سيت والا ايه ؟ .. أنا أخذت توجيهى بعد اتم ما سافرتم بسنة واحدة ..

ولم ينصت عباس لبقية الحديث ، فقد تكتشف له كل شىء .. ان
أحمد أفندى عاصم زوج ابنته ملكة لحامد المحامى .. لا لحامد كاتب
اليومية الذى توسط بنفسه لتعيينه فى السكة الحديد بخمسة عشر قرشا فى
اليوم .. وبدأت دهشته تزول بالتدريج .. وعلا الابتسام وجهه فى بطء
وأخذ يستعيد نفسه المشتتة شيئا فشيئا .. اذا كان حامد قد تزوج ملكة ..
فليحى اذن عن غيرها لنفسه .. فملكة لانغنى بالنسبة اليه شيئا أكثر من
مجرد « المونة » التى يشيد بها مستقبله .. وأنواع المونة كثيرة ملء
البصر وملء اليد ، فليستبدل بها غيرها دون تردد .. ! .. ولكنه أحس

بشئ من الفيلق لأن ملكة تزوجت غيره .. ربما كان هذا الفيلق ناجما
عن الحب القديم الذى ظل ينفخ فى رداه خلال الأيام الماضية حتى رد
اليه بعض الوهج .. ولكنه على أى حال لم يحاول بمش الدفء فى هذا
الحب طلبا للحب نفسه .. كل ما فى الأمر أنه أراد أن يضفى مظهرا
عاطفيا على مشروع الزواج المادى الذى صممه تصميميا منطقيا .. كان
يريد أن يخدع نفسه .. وهو الآن ليس فى حاجة الى هذا الخداع ..
نعم .. انه لا يجب ملكة .. لايجبها على الإطلاق .. أهو صبى غض حتى
يجب ؟ .. واذا كانت قد تزوجت من حامد .. فليهنأ بها ولتهنأ
به .. وحامد - مهما يكن - شاب طيب الخلق رضى النفس .. مكافح
عصامى ..

وانبسدت أسارير وجهه تماما .. والتمع فى عينه بريق ود صاف ..
وأحسن بقلبه يتفتح لحامد .. وانصرف الى حديثه ينهل منه ، فقد أوحشه
حامد وجلسه مع حامد .. وأحاديثه الصاخبة مع حامد .. فانقضت نصف

ساعة أحس بعدها بأن الوقت قد أُنْزِفَ لينصرف .. ولكنه رأى أن الوفاء يقضى عليه بأن يسلم على أحمد أفندى عاصم ، وأن ينقل سلام أمه الى النازح هانم .. فسأل حامد :

— أَمالَ فِينِ أَحْمَدَ أَفندى عاصم ؟

— أَحْمَدَ أَفندى .. ؟ مَا تَعْرِفُشِ وَالْأَيَّاهُ ؟ ..

— خَيْرٌ .. ؟

— دَهْ مَاتَ ..

— مَاتَ .. ؟ !

— بَقِيَ لَهُ سَتَيْنِ ..

فَأُلْزِقَ عَاسِ إِلَى الْأَرْضِ .. لَقَدْ أَحْسَ بِحُزْنِ حَقِيقَتِي لِمَوْتِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ صَدِيقًا لَوَالِدِهِ وَالَّذِي كَانَ يَعامِلُهُ كَابْنِهِ تَمَاسًا لَوْ كَانَ لَهُ ابْنٌ .. وَأَدْهَشَهُ أَنْ يَحْسَ بِكُلِّ هَذَا الْحُزْنِ .. فَقَدْ كَانَ مِنْ أَمَانِيهِ الْخَفِيَّةِ — فِي التَّصْمِيمِ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ فِي بِنَاءِ مُسْتَقْبَلِهِ — أَنْ يَمُوتَ أَحْمَدُ أَفندى عاصمَ مُبَاشَرَةً بَعْدَ أَنْ يَتِمَّ زَوَاجُهُ مِنْ مُلْكَةٍ .. فَهَذَا أَسْرَعُ فِي تَحْقِيقِهِ: هَدَفُهُ مِنَ الزَّوَاجِ بِهَا .. وَرَغْمَ أَنْ الْأَمْرَ كَانَ أَمْنِيَّةً أَشْبَهَ بِالْخَاطَرَةِ الَّتِي تَمُرُّ سَرِيعًا بِالْبَالِ ثُمَّ تَخْتَفِي ، ثَوْنَهُ كَانَ أَحْيَانًا يَقِفُ عِنْدَهَا يَتَأَمَّلُهَا .. فَيَجِدُهَا أَمْنِيَّةً لَهَا حِظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْإِمْكَانِ ، فَأَحْمَدُ أَفندى عاصمَ أَكْبَرُ سَنَا مِنْ وَالِدِهِ وَوَالِدَتِهِ مَاتَ مِنْ زَمَنِ .. فَضْلًا عَنْ أَنْ أَحْمَدَ أَفندى عاصمَ لَمْ يَكُنْ —فِيمَا يَسُدُّ— مَعْنَى يَحْفَظُونَ عَلَى صِحَّتِهِمْ فِي شَبَابِهِمْ .. فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَبَرِّرٍ مُنْطَلِقٍ لِأَنْ يَمُرَّ طَوِيلًا .. بَلْ إِنْ الْمُنْطَلِقُ يَقْضَى بِأَنْ يَمُوتَ مِنْ سِنَوَاتٍ .. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ وَاثِقًا بِأَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ نَعِيَهُ فِي الصَّحْفِ لَأَعْتَقَدَ بِأَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَفْكَرَ فِي خُطْبَةِ مُلْكَةٍ .. كَانَتْ أَدْنَى أَمْنِيَّةِ أَقْرَبِ إِلَى الْحَقِيقَةِ فِي

نفسه .. ومع هذا لم يشعر ازاءها بأسى أو اشفاق نحو الرجل فما باله الآن يحسن بهذا الحزن الحقيقي عندما سمع -يقينا- نبأ موته ..؟ أيرد الأمر الى أنه لن يستفيد شخصيا من موته مادام لم يتزوج ملكة .. وهاله أن يكون الأمر كذلك ، فعنى هذا أنه كان سيفرح بموت الرجل لو كان سيشارك ابنته ميراثها منه .. أهو قد وصل الى هذا القدر من الحسنة حقا .. ان الفرق بينه حيثئذ وبين ذلك الذى يقتل للسرقة فرق ضئيل .. هو الفرق بين النية وبين التنفيذ .. بل ان انقاتل أفضل منه فى هذه الحالة .. لأنه يجد فى نفسه القدرة على تحقيق أمانيه بينما يكفى هو بمجرد اتنى .. كلا .. انه ليس شريرا الى هذا الحد .. والأمر لا يعدو أن يكون انسياقا مع حلم من أحلام اليقظة ثقيل أشبه بالكابوس .. ولاشك أنه كان سيحزن لموت أحمد افندى عاصم لو كان تزوج ملكة نفس الحزن الذى يستشعره الآن.

ومد يده الى حامد يربت بها كفه ، وقال فى رقة :

- البقية فى حياتك يا حامد •

- تعيش يا عباس .. كان راجل طيب •

- فعلا كان راجل طيب .. الله يرحمه •

- أنا ما أنساك فضله على .. انت فاكّر طبعا اللي عمله علشاننا لما أبويا

عبي ١٩٠٠

- الله يرحمه كان ما يتأخرش عن خدمة حد •

- أنا بالذات .. جميله ما قدرش أنساء .. هو اللي ادالى فرصة

أكمل تعليمي •

ونهض عباس واقفا وقال :

- أستاذن أنا بقى •

- ياراجل خليك .. أنا ماشفتكش من سبع سنين *
- علشان ألحق القطر .. بس بلغ تمرى للس بتاعتك *
- الست بتاعى ؟ .. فى مين ؟
- فى احمد أفندى عاصم *
- اشمضى يعنى ؟
- مش أبوها ياأخى *
- أحمد أفندى عاصم يقى أبو الست بتاعى ..؟ انت جايب الكلام ده مين ؟

- آه .. مش انت اتجوزت ملكة ؟
- أنا ..؟! مين ابنى قل لك كده ؟
- يعنى انت مش متجوز ملكة ؟
- لأ طبعا ..
- أمال انت هنا ليه ؟ .. مش ده بيتهم ؟
- أه .. الحكاية جت من هنا بقى .. لا ياأخى ده كان بيتهم وباعوه وأنا ساكن هنا دلوقت .. كأنك مش جاي لى أنا ؟

ولم يجب عباس على هذا السؤال ، بل ألقى بنفسه الى مقعده مرة ثانية وأخذ يحدق فى حامد ذاهلا .. ان الأحداث تتابع عليه منذ دق جرس الفيلا من نصف ساعة * وتتابعها يمضى سريعا مذهلا يوشك أن يفقده زمام السيطرة عليه .. والتصميم الذى وضعه لمستقبله يتأرجح فى كف جنى ساخر يطوحه يمينا ويسارا كرشة فى مهب ربح عاصفة .. وان كان يبدو

الآن انه عاد يقيمه بعد أن خطمه •• فأحمد أفندى عاصم مات •• وورثته ملكة •• ولم يتزوجها حامد ، لقد أصبحت الموتة من صنف ممتاز •• دلتن يضطر الى أن يطلب من أبيها مساعدته بعد أن أصبحت الثروة ثروتهاى ، وثروتها ستكون ثروته يتصرف فيها كيف يشاء •• عليه اذن أن يعود الى الدعائم الأولى لتصميمه فيتزوج ملكة •• هذا اذا لم تكن قد تزوجت من غير حامد •• فسأله :

– وملكة اتجوزت والا لسه ؟

– والله •• كن واحد جه خطبها قبل أبوها مايعيا •• وبمدين طار لما الرجال مات •

– طار •• ؟ ليه ؟

– يظهر انه كان باصص للقرشين اللى عند أبوها •• ولما لقي ان ماحيتهاش حاجة •••

فقاطعه حامد :

– ماحيتهاش حاجة ! ازاي ؟ مش ورثت عن أبوها ؟

– ورثت ايه المسكينة •• ورثت الهم والفقر •

– ازاي يا أخى ؟ •• دا كان راجل مبسوط •

– كان •• قبل ماي موت الله يرحمه كنس كل حاجة حتى الفيلا دى باعها وصرف ثمنها على الحكما والأدوية •

– باعها ؟! •• طيب والأرض ؟

– كله •• كله اتكنس يا عباس •• الله يرحمه ماخلاش حاجة

أيذا ••

وأحس عباس بأن الجنى الساخر الذى كان يبحث به وبمشروعاته قد تحول الى شيطان مريد ، وتلك الانباء اننى تقاذفه والتي لم تترك له فرصة يلتقط فيها أنفسه اللاهثة منذ دق جرس القيلا قد آن لها أن نلقى به الى هاوية يستقر فيها حقا ، ولكن مع حطام مشروعه ، فكل شيء قد انتهى الآن الى دمار شامل .. كل مارسم من تصميم لمستقبله قد أزالته كف الجنى الساخر بممحاة قاسية ، فملكة لم تعد تصلح مونة لتنفيذ هذا التصميم .. الا اذا أراد أن يشيد مستقبله على أساس من الرمال انواهنة .. وهل يريد ؟! أهو من البلاهة الى هذا الحد الذى يجعله يورط نفسه هذه الورطة التى لا مخرج له منها اذا وقع فيها .. أهو من الضعف الى الحد الذى يجعله يضع مستقبله فى يد القدر .. هذا الجنى الساخر .. أو الشيطان المريد الذى لا يعرف رحمة بأحلام الناس وآمالهم .. لا يغير شك .. فليستبعد ملكة استبعادا نهائيا من تصميم مستقبله .. وليضعها فى موضعها الاول الذى لا يكلفه شيئا الا مجرد احساس بالأمسى لمصيرها .. موضع ابنسة الجيران وصديقة الطفولة التى لا ترتبط به الا فى ماضيه ..

وكان حامد يتحدث عندما أفاق من شروده .. ويبدو أنه كان لا يزال يتحدث عن ملكة وأمها فقد التقطت أذنه هذه العبارة :

- لما ضاق بهم الحل عزلوا فى الشرايبة .. كنت بأروح أزورهم والمرحوم عيان .. ودلوقت والدتى هى اللى بتودهم .. بقت حالتهم كرب خالص .. والدتى كانت عندهم الجمعة اللى فاتت .. لقت ملكة لابسه فستان كمامه مرقعة .. والجزمة كعبها ملووح .. ونازج هاتم فى جلاية سودة داينة وجربانة .. تصور ؟ ..

وتصور عباس .. وجعله تصوره يحس بذعر خفى .. فقد تصور ملكة وأمها لاكما صورهما له حامد ولكن كما تى ذاكرته صورتهما التى رآها آخر مرة منذ سبع سنوات .. نازج هاتم فى معطفها الاسود الثمين

ليتهى به الى مصير مجهول يكون كالقيد المحكم ليس له منه مهرب ...
وقال حامد بقة :

- عباس .. انت اتجاوزت ؟

- ل .. ل .. ل .. لسه ..

- طيب ماتجوزها يا أخى ! ..

وفزع عباس .. يتزوجها ؟ .. أبيضم فقرا الى فقر ؟ .. أقيم مستقبلا
على دعامة من رمل ؟ .. !نه يريد مونة مثينة يشيد بها مستقبله .. فلينصرف
اذن وليعد الى الاسكندرية بأول قطار .. وليقطع صلته بهذا الموضوع .

وهب واقفا ، وصافح حامد .. فقال هذا وهو يودعه عند الباب :

- اذا كنت تحب نفوت عليهم .. فهم ساكنين فى الشراية شارع

سفوت نمرة ٢٥ .. فى البدرون .

فكتب عباس هذا العنوان محرجا أمام حامد ولكنه كان معترضا الا

يذهب .. يذهب !؟ .. أينقصه هم جديد !؟ ..

نظر عباس الى الساعة التى فى رصفه فألفاها النصف بعد السادسة
ماللزم يمر بطيئا كئيبا .. مازالت أمامه ساعة ونصف حتى موعد القطار
وهذا الصداق قد تحول الى مصنع من مصانع الصلب فى رأسه .. طرقات
ودقات .. وأبخرة ساخنة تلفت عقله .. وصفق يستدعى الجرسون :

- كمان اسبرينه وفنجال قهوة من فضلك .

وايتلع قرص الاسبرين .. وبدأ يرشف القهوة فى عصبية وأخذ
يتلفت حوله الى الموائد المبثرة فى أنحاء المقهى .. كان يريد أن يشغل
نفسه بشئ يصرفه عن هذا الصداق ، ويسرى عنه هذا الهم والضيق ..
فرأى بائع الياصيب يقف عند مائدة قريبة ، وقد أخذ شابان يعبثان بأوراقه

ثم اشترى واحد منهما ورقة وصرف البائع ، وسمعه عباس يقول لزميله :

- تعرف لو كسبت الميتين أعمل بهم ايه ؟

- ايه ؟ ..

- اشترى بهم ورقة يانصيب •

فضحك زميله وقال :

- أنا أعرف واحد ضربت معاه الألف •• تعرف عمل بهم ايه ؟

ولم يسمع عباس بقية الحديث ، فقد استوقفته عبارة الألف جنيه ••
فهذا انسان كسبها •• فلماذا لا يكسبها هو ؟ ان فى جنيه ورقة قديمة لم
يكشف عليها بعد ، فلو كسبت ؟ ان مشكلته تحل •• وتحل فى سهولة لم
يكن يتوقها •• فهو لا يريد أكثر من هذا المبلغ لبدأ حياته • لو أن احمد
افندى عاصم لم يمت •• أو لو انه لم يبدد ثروته قبل موته •• ولكن ماله
وما لأحمد أفندى عاصم الآن ؟ •• ان هذا شيء قد انتهى منه •• انه يريد
أن يكشف عن الورقة التى معه •• فاليانصيب قادر على حل مشكلته ••
بل على حل كل المشكلات التى تواجه أى فرد •• ملكة وأمها مثلا •• لو
كسبتا ورقة يانصيب لطلقتا هذا الفقر المر الذى ترسمان فيه •• لاشك فى
أن مفتاح السعادة هو ورقة اليانصيب •

وأخرج الورقة من جيبه ومضى يتفحصها •• هذا الرقم يلوح عليه
أنه رقم رابع •• انه يعلم أن رقم سبعة رقم سعيد وفى ورقته ثلاث سعات
•• ولو جمع أرقام الورقة لكان مجموعها سبعة •

وبدأ يجمع •• ثم سمع ضجة وصخباً خارج المقهى ، فنظر من
النافذة المجاورة له •• ورأى موكب عرس •• موسيقى نحاسية •• خلفها
رتل من السيارات •• وفى مقدمتها سيارة مزينة بالورد تنبعث منها
الزغاريد •• ولمح خلف زجاج نافذتها فتاة فى ثوب زفاف أبيض •• وكانت

هى أيضا بضاء ناصعة البياض مثل ملكة .. انها تطرق الى الارض فى خجل .. مثلما كانت تطرق ملكة وهو يضبط يدها منذ سبع سنوات .

كان مقدرا للملكة أن تكون فى مثل هذا الثوب الابيض وان تطرق الى الارض فى خجل وهو جالس الى جانبها فى بدلة الزفاف السوداء .. لو لم يمت أبوها وسلمها الى الفقر .

ألف جنيه فقط .. ألف جنيه فيجلس الى جانب ملكة فى ثوبها الأبيض .. لو كان عندها ألف جنيه ..! .. أو لو كانت عنده هو ! ..

ورأى ورقة الياصيب لاتزال فى يده .. وتذكر أنه كان يجمع أرقامها .. لو ربح الورقة الألف جنيه فليس ثمة ما يمنع أن يتزوج ملكة .. ان كل مشكلته هى المال .. فإذا وجده سواء عندها أو عنده فلماذا لا يتزوجها ؟ .. انها فتاة ممتازة حقا .. كم كانت أيامه معها جميلة حقا .. لقد عاش فى جنة حبها العبياني أربع سنوات .. وفى اللذة التى تقرر أن يسافر فى صباحها مع أسرته الى الاسكندرية حيث نقل أبوه .. جاءت ملكة وأمها وأبوها لتوديعهم ، وسهروا حتى انتصاف الليل ، وعندها هموا بالانصراف سبقتهم ملكة الى الباب وتبعها هو .. وهناك .. تشابكت كفاهما فى وداع صامت .. ثم سأله فى صوت مرتجف :

— حثفكرنى يا عبالى ؟

فضغط أصابعها بين أصابعه فى ألم .. ولم يستطع أن ينطق الا بعد جهد :

— لازم أرجع تانى .. لازم .. ضرورى أرجع لك تانى .

لقد كان هذا وعدا ألقاه وهو يعتزم تحقيقه .. ولكن السنين جعلت القنور يدب الى عزيته وضباب النسيان يلف قلبه .. فلم يتذكره الا الآن . ترى ما الذى جعله يتذكر هذا الوعد ؟ لقد اكسى وجهها أمى عارما وهو

يودعها منذ سبع سنوات .. ولكن هذا الوعد الذى ألقاه جعل أشعة من
الفرح تتألق فى عينيها ، وكم يكون فرحها الآن اذا عاد اليها ليحقق وعده !!
ولكنه لن يعود ، لن يعود الا ...

— يا صيب .. خذ الورقة دى يا به يمكن تكسب •

وأفاق عباس من تأملاته .. فرأى أمامه يدا تمتد اليه بأوراق
الياصيب .. كانت يدا بيضاء ناصعة فيها سمرة .. وفيها طراوة لم يمهدها
فى أيدي البائعات الياصيب .. فارتفع بصره رويدا رويدا .. من اليد الى
الساعد الذى يلفه كم أسود من القطيفة التى حالّ لونها .. ثم الى الجسم
فاذا بها سيدة سمينة ترتدى معطفا أسود أجرب .. يدلّ نسيجه على أنه
كان فائرا فى يوم من الايام .. وتسدل على وجهها قناعا يخفى ملامحها •
وأحس بأنه رأى هذه اليد من قبل ، ورأى هذا الجسم الابيض
السمين من قبل .. ولكن .. أين ؟

وأحس بقلبه يخفق .. ويخفق حتى كاد يسمع دقاته .. ثم تكلمت
السيدة :

— يا به .. خذ الورقة دى .. ساعدنى يا به .. أنا باجى على
ولايا ! ..

واشتد اضطراب عباس .. وكان فى منظره شيء جعل البائصة
تضبط على هذه النعمة .. فمضت تقول :

— أنا واحدة من عيلة .. وكنت مبسوفة .. لكن جوزى مات ..
وعندى ولايا باصرف عليهم .. ساعدنى ربنا يساعذك .. أنا سنى زى
سن والدك •

وهم عباس بأن يقفز اليها .. أترأها ؟ ..

ورفت البائصة القناع عن وجهها ، وأشارت الى أخايد الزمن على

وجتيتها ولمست شعرها الذى استحال الى قطن مندوف .. لا .. لم تكن
هى نازج هانم كما حسب .. وشعر بأن أعصابه انهارت وبأن عقله قد
طفئت عليه الأبخرة الساخنة حتى اختلطت عليه الأمور .. والا ، كيف ظن
- ولو للحظة قصيرة - ان هذه البائثة هى نازج هانم ؟ .. ان نازج
هانم تنطق العربية فى لكنة تركية واضحة وهذه البائثة لهجتها قاهرية
نقية .. أنسى هذه الحقيقة التى كانت واضحة فى ذهنه منذ لحظات ؟ ..
لاشك أن أعصابه انهارت .. ومد يده فى شروذ الى البائثة وتناول الكشف
.. وجرى بصبره باحثا عن رقم الورقة التى فى يده بين الأرقام الراححة
ثم هشم الورقة بين أصابعه فى صمت .. وألقى الى المرأة بقرش ، وما كادت
تصرف حتى انكفأ على المنضدة .. كان يريد أن يبكي ، لعل الدموع ترحمه ،
وتخفف هذا الصداق الذى يدمر رأسه .. نعم .. ان البائثة ليست نازج
هانم .. ولكن كان من الممكن أن تكون هى .. من الممكن أن تباع نازج
هانم اليانصيب ومن الممكن أن تعمل ملكة خادمة .. وغسالة .. بل من
الممكن أن تتسولا .. فالزمن لا يعرف أصلا عريقا ولا غير عريق .. وفى
استطاعته هو أن يقيهما هذا المصير اذا تزوج ملكة هما جزء من ماضيه ..
بل لعلهما أكثر أجزاء هذا الماضى اشراقا وحنانا .. أربع سنوات من الحب
الصافى البرى ، منحها له ملكة ، كانت تحبه وهى غنية تفنن شباب الحى
الناضج بجمالها ، ولم يكن هو الا صبيا صغيرا لم تكتمل رجولته ولم يتضح
مستقبله ، ورغم هذا قدمت له قلبها دون ثمن .. لسبب بسيط جدا هو أنه
لم يكن يملك الثمن .. فماذا قدم له غيرها ممن عرفهن فى الاسكندرية
عندما كان يملك الثمن فلما ؟ .. لاشئ .. كن يطمعن فى الثمن بلا مقابل ..
بل وماذا ينتظر أن تمنحه أى فتاة يتزوجها .. انها مهملات يقدلت له من حب
فمن تبذل ما يعبدل الحب الذى منحته اياه ملكة فى صباه .. فماذا ستقدم له
غير ذلك ؟ الجنيهات الألف ؟ .. وهل تساوى الجنيهات الألف كل هذا
الماضى الجميل .. يشرافه وطهره وحنانه ؟ ! ..

وعندما رفع رأسه كان يشعر بشيء جديد لم يألّفه من قبل ..

كان حامد كاتباً باليومية ، يعول أباه المريض وأمه وأخوته ، ثم أصبح محامياً .. وكان هو سمسار مساكن يطوف على البيوت الخالية ، بل كان يائع « روبايكيا » فى يوم ما .. وكل هذا قد انتهى وأصبح الآن مهندسا .. فهل يعجزه أن يحصل على رأس المال الذى يريده لبدأ حياته التى يريدھا ؟! ..

أأقفلت الابواب فى وجهه الـ باب الزواج من ثرية .. وباب الـ انصيب ؟! ..

وابتسم فى سخرية وهو يلقى بورقة الـ انصيب المشتمة الى الأرض .. ثم نادى الجرسون ليسأله :

- اللى عاوز يروح الشراية يركب ايه من هنا ؟

ولما تنسم الهواء النقى خارج المقهى لاحظ أن الصداق قد زال .. وحل محله صفو وارتياح .. وان الضباب الذى كان يفلق عقله قد تبدد ليقتح الطريق أمام أضواء جديدة ..

متاعب خاصه

سأقص بعض متاعبي الخاصة .. أليس من حق الكاتب على اقراء
أن يقرأوا له ولو مرة واحدة عن متاعبه الخاصة ؟

بدأت هذه المتاعب في ميدان العتبة في الثانية عشرة من مساء احدى
ليالى الاسبوع الماضى .. كانت ليلة جميلة .. أنفقتها منذ الغروب مع
صديق لى من الباحثين عن متاعب الناس ليخطوها على الورق قصصا ..
وقد هبوا في هذه الليلة ماشاء لنا اللهو .. واستمتعا بكل دقيقة مرت بنا
وبكل قرش كان فى جيوبنا .. وهكذا .. عندما دقت الساعة الكبيرة فى
الميدان لتعلن انتصاف الليل .. لم يكن فى جيبي ولا فى جيب الصديق
الا قرشان ، قرشان فقط .. مهما أجرينا عليهما من العمليات الحسابية ..
فلن يزيد الناتج عن عشرة مليمات لكل منا .. ولم تكن نحتاج فى الواقع
الى أكثر من ذلك فى ختام ليلتنا .. فلم يكن أماننا الا العودة لمنزلنا ..
ومنزل الصديق فى شبرا ومنزلى فى مصر القديمة .. وما على كل منا
الا أن يركب الترام .. ويدفع المليمات العشرة للكسارى .. ثم يجلس
هادئا مستريحا .. يدخن سيجرة - وكان معنا الكثير منها - حتى يصل
الى منزله .

كان الجو رائعا .. سماء صافية .. ونجوم براققة .. ونسيم رقيق
لايقوى على البعث بجلايب لابسى الجلابيب العائدين الى بيوتهم بعد
انتصاف الليل .. وافترقنا .. أنا والصديق .. ولا أدري ماحدث له بعد
ذلك .. أما أنا .. فقد وقفت أنتظر الترام .. وانقضت عشر دقائق
ثم عشرون .. ثم ثلاثون .. ودقت الساعة معلنة انتصاف الواحدة .. فلم

يخالجنى خوف أو وجل .. فالواصلات كما سمعت مستمرة حتى الساعة
الثالثة صباحا .. وكانت محطة الترام مقفرة .. الا منى وه ومن عامل
يرتدى ثيابا ملطخة بالزيت .. يروح ويجيء على الرصيف فى قلق
واضطراب ، ومع أن الميدان فيه ساعتان كبيرتان .. ومع ان احدهما دقت
فى صوت مجلجل مدو .. الا أن زميل على الرصيف اقرب منى بعد
دقائق يسألنى فى صوت مرتجف :

- الساعة كام من فضلك ؟

- اتناشر ونهن وخمسة .

- آمال الترمائ اتأخر ليه ؟ . .

وللا لم أكن مسئولاً عن تأخير الترام .. ولم يكن ثمة ما يدعو الى اجابة
جافة .. فقد قلت :

- زمانه جاي .. ! .. احنا فى آخر الليل ..

فعاد زميل يذرع الرصيف فى قلق .

وأخيرا .. ظهر الترام فركبت ، وركب العامل .. زميل على
الرصيف .. وجلسنا متقابلين .. وسار الترام فى طريقه فأخرجت
سيجارة من علتي الفاخرة ووضعتها فى فمى .. ومددت يدي أبحث فى
جيبى حتى عثرت على القباب .. وقبل أن أشعل السيجارة سمعت صوتا
رقيقا مهبذا يقول :

- ورق ! ..

كان (الكمسارى) .. فأخرجت القرش الوحيد من جيبى وناولته
له .. فنظر فيه قليلا .. ثم نظر الى طويلا .. وعندئذ أحسست بقلبي يسقط
فى ساقى ..

- ايه ؟ القرش وحش ؟

- لا ..

فحمدت الله فى سرى .. وتلت فى كبرياء :

ر - آمال ايه .. ؟ .. بتبص لى قوى علشان ايه ؟ ..

- أصل التذكرة بقرشين ! ..

- قرشين .. ؟ .. ليه ؟ ..

- بعد الساعة اتناشر ..

فعمدت يدي الى جيبي فى كبرياء .. ولكنها عادت ففرغة .. وتضاءلت
كبريائي جدا .. وأحسست بالعرق يندى جبهتي .. ولكننى رجل عملى
ويشغى أن أتصرف .. فقلت للكمسارى - ولم يكن فى صوتي كبرياء إطلاقاً:

- يظهر أن مايفش غير القرش ده مايا ! ..

وكان الكمسارى ينظر الى فى أدب واشفاق ، والعامل الذى يجلس
أمامى ينظر الى فى جزع واضطراب .. ثم قال الكمسارى وهو يسألنى
القرش :

- تقدر حضرتك تتركب الأوتوبيس ..

فقل العامل فى صوت متحشرج :

== بكلام ==

- بقرش صاغ .. لحد الماعة الواحدة ..

فأخذت القرش فى خجل .. وقمت عن مقعدى .. ولم أكن قد

أشملت السيجارة بعد .. وكان العامل قد سبقنى الى السلم .. رُفِّل
الكسارى :

- الأتوبيس قام ورائنا من العتبة .. تقدروا تأخذوه على طول ..

وغادرت الترام فى المحطة التالية .. والكسارى يسير فى ركابى
حتى السلم والعامل يسبقنى الى النزول .. ثم سار الترام فى طريقه بعد
أن خلفنا على المحطة .. وقبل أن نتجه الى محطة الأتوبيس .. رأيناه
يقبل مسرعا كالعاصفة مضيا كاللؤلؤة .. ثم يمر بنا قبل أن ننقل أقدامنا
خطوة واحدة .. فقال العامل :

- آدى الأتوبيس مشى .. أما مقلب ؟! .. أنا مفيش معاى غير
قرش واحد زى حالاتك ..

وأنا رجل عملى وينبى أن أنصرف .. فنظرت فى ساعتى .. ثم
قلت له :

- الكسارى قال الأتوبيس لحد الساعة واحدة بقرش ..
والساعة دلوقت واحدة الا ثلث .. يالله بينا نمشى تانى لحد العتبة نلحق
الأتوبيس ..

وهكذا انطلقنا - العامل وأنا - مسرعين فى الطريق الى العتبة ، وكنا
مضطربين .. فلم نستمتع بالجو الرائع ولا بالسماء الصافية والنجوم البراقة
.. وكف النسيم الرقيق عن هبوه .. فوصلنا الى موقف الأتوبيس ونحن
تصبب عرقا .

وسألنى زميل العامل :

- الساعة كام ؟ ..

- واحدة الأربع ..

واتخذنا مجلسنا فى السيارة متجاورين .. فقد أصبحنا صديقين
تجمعنا مشكلة واحدة .. وكانت السيارة مازالت بين شقتى دون اشغال
.. فأخرج صديقى الجديد علبة نقاب ليشغل لى السيارة فأخرجت بدورى
علبتى الذهبية وتاولته سيارة .. فأخذها وهو يتطلع الى العلبة الذهبية فى
عجب .. ثم قال بعد تردد :

- لا مؤاخذه .. حضرتك باين عليك .. ماتا خذنيش يعنى .. يعنى
ولا مؤاخذه غنى .. ازاي مامعكش غير قرش صاغ ؟ ..

فأبسمت وأنا أقول :

- ياسيدى .. ماغنى الا الله ..

فصمت قليلا .. ثم عاد يقول :

- طيب .. أنا معذور .. ابني عيان .. وحالته وحشة ، وجبت له
حكيم الساعة حذاشر كتب له على دوا .. ولا أجزخانة فاتحة .. جيت
صرفت الدوا من الاسعاف .. ودفعت كل اللى ممايا .. مافضلش غير
القرش ده .. انما حضرتك .. حضرتك يعنى ماتا خذنيش ..

وأردت أن أشغله عن مشكلة حضرتى بمشكلة حضرته ، فأسرعت
أقول :

- أهو انت حكايك دى انلى مقلب .. تصور بقى لو ماكانش
الا وتوبيس للساعة واحدة كنت عملت ايه ؟ ..

- ها اعمل ايه يعنى ؟ ..

- ابنك عيان مستنى الدوا .. وامت مشن قادر تروح علشان ماما كمش
غير صاغ ! ..

- ربنا موجود .. جل لنا بحكمته الأوتوبيس للساعة واحدة
بقرش صاغ ..

وعندئذ دقت الساعة الواحدة .. فقفزت كاللمسوع .. كان الحديث
قد شغلنى عن ملاحظة الوقت .. حتى أصبحت الساعة الواحدة تماما ..
ولم يتحرك الأوتوبيس بعد .. وكان هذا يعنى أن ذلك الأوتوبيس
بالذات موعده بعد الواحدة .. أى أنه سيكون هو الآخر بقرشين بدلامن
قرش .. وكان صديقى الجديد ماضيا فى حديثه .. لم يتبه لهذه المشكلة
الجديدة .. ومضت دقيقة .. فتحركت فى مكاتى بقلق .. ومضت دقيقتان
فنظرت من النافذة أبحث بنظرى عن السائق والكمسارى فلم أجدهما ..
واتصت ثلاث دقائق .. فقلت لصديقى الجديد :

- يظهر ياحلو ان الأوتوبيس ده يقوم بعد الساعة الواحدة ..

- يانهار اسود .. ! .. وبسدين ؟ .. ابنى ؟ .. اعمل ايه
فيه ؟ ..

ونظر الى نظرت اليه .. وعندما التقت عينانا كنت قد انتهيت
لقرار .. سأعطيه اقرش الذى مى لىذهب الى ابنه بالدوا ..
أما أنا ..

ولم أشأ أن أفكر فيما قد يحدث لى حتى لا أراجع عن هذا
القرار ..

وفجأة بدأت السيارة تتحرك .. وتقدم الكمسارى إلينا .. فناولته

صديقي قرشه فأعطاه تذكرة .. فحمدت الله .. وناولته قرشي .. فأعطاني
تذكرة .. فأخذتها في كبرياء .. ثم قلت له من طرف أنفي :

- اتأخرتم ليه ؟ ..

- كان فيه مشكلة مع الناظر أخرتنا عشر دقائق ..

- وتأخروا الجمهور معاكم بالشكل ده ؟ ..

- ياسيدي ماتدقش ؟

ثم انصرف عنا الى غيرنا من الراكبين .. وعدت الى منزلي .. وعاد
صديقي العامل الى ابنه بالدواء ..

حكاية الشيخ سيد

أنا أعرف الشيخ سيد من زمان ، من خمس سنوات أو ست ، وكنت أيامها أسكن فى بدروم بيت الحاج خلاف فى حارة الامرا بالسيدة زينب ، والسكن فى البدروم شيء مخيف ، يكفى اتنى - وأنا الانسان - كنت أنام تحت سطح الأرض بمترين ، بينما أرى بعينى مئذنة المسجد شامخة تحترق السحاب ، وكنت أصحو فى الليل مزعجا على صغير الصراصير وديب أقدام الفيران ، بينما المئذنة تتأهب فى الفجر وتمطى شامخة على زقزقة الصافير ، على أتنى لم آسف كثيرا حينئذ لكرامة الانسان ، فقد كنت أمر بفترة من العمر لا يتنبه المرء فيها الى أمثال هذه المشكلات ، فقد كنت فنانا ، أو بتعبير أكثر دقة ، كنت أعد نفسى لاكون راهبا من رهبان الفن ، ولا بأس عند راهب الفن من أن يفكر فى مشكلات آلهة الأوب وهو يعيش فى تلالن زينهم ، وكنت أنسى - أو أتأسى - شعر رأسى حتى ينمو ويقطى قفاهى ، بينما لم أنس مرة أن أميل الطربوش حتى تلمس أطراف الزرأعلى أذنى وأثبت البيون الاسود فى ياقة القميص التى تحجرت من النشا . ولما كان التفكير فى مشكلات آلهة الأوب ليس مصدرا للرزق ، وكانت الآلهة المذكورة لانهن باطعام المشتغلين بمشكلاتها ، فقد كنت أنفق على نفسى من قرشين ورثتهما عن المرحوم أبى ، ومن الطبيعى جدا أن يذوب القرشان فى محراب الفن ، ومن الطبيعى جدا أيضا أن أحس بانزعاج شديد لذوبان القرشين ، ثم من الطبيعى جدا مرة ثالثة أن يقلقل هذا الانزعاج ايمانى بآلهة الأوب . فبدأت أتشكك فى جدوى التفكير فى مشكلاتهم .

وذات صباح أحسيت ما تبقى من القرشين ، وكان فى نتيجة هذا

الاحياء نهاية لايماني بالآلهة الأولب ، فكفرت بهم وبمشكلاتهم وبدأت
أومن بمشكلات تلال زينهم ، وفي هذا الصباح بالذات رأيت الشيخ سيد
للمرة الأولى •

كنت أنسلق سلالم البدروم لأخرج الى سطح الأرض ، عندما
سمعت صوتا أجش كريهاً يرتل آيات من القرآن الكريم في الحارة ،
ومع اننى سمعت كثيرا من المتسولين الذين يستقلون القرآن في اجتذاب
قلوب المؤمنين ليتزعموا منهم بعض النقود ، وبالرغم من أن أصواتهم ليست
أقل قبحا ، وترتيلهم ليس أخف نشوزا من هذا الصوت الذى سمعته ،
الا أننى توقفت عند باب البيت أرقب صاحب هذا الصوت فى اهتمام •

ولست أذكر الآن تلمعا ما أثار اهتمامى به ، أكان فيه شيء يلفت
النظر •• أم ان كبرى بالآلهة الأولب ومشكلاتهم جعلنى أقف عند أول
مشكلة تلقبها فى طريقى تلال زينهم ؟ •• على أننى اقتربت منه وأخذت
أنفحصه ••

كان يجلس على الأرض فى ظل جدار بيت خرب عند رأس الحارة ،
عليه جلباب قديم ، لاشك فى أنه كان فى يوم ما أبيض اللون ، وان كان -
وهو فوق جسده - لايمت لللباى بصله ، ويتمنطق بشال أخضر باهت
متآكل • وفوق هذا الجلباب يلبس شيئا ما - لعله أراد ان يكون جبة -
وان كان منظرها يدل على انها كانت فى غير الزمان معطفا لرجل سجين ،
وفوق رأسه طاية قدرته يلف عليها قطعة من القماش يحاول تضخيمها بخرق ،
يحشوها بين طياتها حتى تبدو فى صورة العمامة . وفوق فخذه عكازة
ضخمة تكاد تصرخ بالناس ان صاحبها أعمى ، وكان شعر لحية ورأسه
مسترسلا فى صورة قدرة تبعث على التقزز •

وطالت وقتى أمامه ، وخيل الى أنه أحس بى - رغم أنه أعمى - فقد
لاحظت أن شيئا من الوجوم عراه ، وان ترتيله أصابه بعض الفتور ، فأدركت

أنه حسبنى مخبرا وخشى أن أقبض عليه بتهمة التسول ، فاقتربت منه وقلت مشجعا :

— أحسنت ياسيدنا !! —

ثم دبست فى يده نصف فرنك كاملا جملة ينقطع عن الترتيل ليدأ سىلا من الدعاء بأن يصر الله ببنى ويطول عمرى ويوسع رزقى ويوقف لى أولاد الحلال . وهكذا نشأت ببنى وبينه صلة من الود . فعندما عدت الى البدروم مع الشمس الغاربة وتحت أبلى عشائى من الحبز والسّمك المقلّى ، ألقيت بين يديه رغيفا وقطعة من السمك ، وأنا أذكر الآن تماما اننى لم أنطق حرفا واحدا وأنا أعطيه الطعام ، الا أنه عرفنى بطريقة أو بأخرى ، فقد أطلق سيل الدعاء الذى ودعنى به فى الصباح .

وفى تلك الليلة . . وعلى صغير الصراصير وديب أقدام الفيران . . رقدت أفكر فى هذا التسول ، واعتزمت أن أكّتب عنه رواية يتخاطفها القراء ويتصارع حولها النقاد ، وقبل أن أروح فى النوم كانت خطوط الرواية قد اتضحت أمامى ، سأجمله فى صدر شبابه (فلاشك انه كان شابا قويا) يستولى على قلب بنت واحد من الباشوات ، فتجربى وراءه ، وتحاول اغراءه بمائها وجمالها ، فيتأبى عليها لأنه زاهد منصرف عن غرور الدنيا وعرضها ، فتحاول ارهابه بجاه أبيها ، فيثور فيها ثورة الكريم الذى لا يضام ، وعندما يضيق بها ويتسلط أبيها يفر منها الى الدنيا الواسعة يطلب رزقه من كرم عباد الله . وتنحصر هى ياسا منه ولوعة عليه .

وأخذت أحلم طول الليل بالناشر يتوسل الى أن أعيد طبع الرواية للمرة العاشرة ، وبحفلات التكريم تقيمها لى المحافل الأدبية ، ومخرجى السينما وهم يجرون خلفى لأبيع لهم حق اخراجها على الشاشة . وكان آخر حلم رأيته هو حجرتى فى البدروم وقد أصبحت أعلى من المشذبة ، واننى أقف فى شىء شبيه بالشرفة أطل منه على أعلى نقطة فى سطح المدينة . .

وفى الصباح فتحت عيني على الصوت الكريه الأجنس تسلسل من سطح الأرض الى قى فراشى بالبدروم ، فلتسقطت مبتهجا أهتز تشيئا لا يرتدى ثيابى بسرعة ، ولم أنس ان العن آلهة الألب وأنا أخرج الى وحيى الجديد الذى ألقته تلال زينهم فى طريقى . وأسرعت أولا الى مطعم الفول فى ميدان السيدة فتناولت افطاري ، ثم اشترت له رغيفا وضمت فيه بعض أقراص الطعمية ، وعدت اليه وأعطيته اياه ، وانتظرت حتى انتهى سيل الدعاء الى بعمار البيت وتوسيع الرزق . الخ ثم أخذت أحداثه ، فقد كنت فى حاجة الى بعض المعلومات عنه لأستعين بها فى الرواية ، سألته عن اسمه ، فقال وفمه مكنظ بالطعام :

- محسوبك الشيخ سيد ! ..

و كنت أعتقد ان أهم ما أريد معرفته عنه هو قصة عينه ، فلا شك أن وراء بصره الكفيف قصة ، وقصة مثيرة .. فربما عذبه البشا وفقاً عينه ! وتطلعت الى وجهه .. كانت عيناه مازالتا فى محجربهما .. لم تتزعا منه .. ولكن هذا لا يغير من الأمر الواقع .. وهو أنه أعمى .. ولعماد صلة بنت البشا .. أو ينبغى أن أوجد هذه الصلة فى روايتى .. كنت على أى حال فى حاجة الى معرفته من ماضيه .. ربما ألقى الضوء أمامى ، ويخطر لى أن أسأله مباشرة عن قصة عينه .. ولكننى قدرت أن مثل هذا السؤال سوف يثير ذكريات أليمة فى نفسه ، ذكريات ربما أغلقت دونى الباب الذى يقودنى الى جوهره .. فرحت أحاوره وأداوره لأجره الى هذا الحديث الشاق ، فتكلم .. وتكلم كثيرا .. طاف بى موضوعات شتى . حدثنى عن الفرق بين الطعمية بالزيت الحلو وبينها بالزيت الأحمر .. وبين الملائكة المخلوقين من نور والشياطين المخلوقين من نار ، وحدثنى عن الترام فى شارع الخليج ومقلة اللب فى السد البرانى .. وحدثنى عن كل شئ الا عن قصته هو ، وبعد ربع ساعة وجدت أنه مازال سرا بهدأعنى

•• بعيدا كالبعد بين حضيض البدر ومسوق المذنة ، فقررت أن أأخذ
الى غرضي مباشرة ، واتهزت فرصة كف فيها عن الحديث ليلتقط أنفاسه
•• فقلت له :

- انما ايه اللي خلى عنك كده •

وكان قد انتهى من التقاط أنفاسه ، فأصرح يقول :

- أنا ظلمت كده •• أوعى عليهم وهم كده •• دا شيء بقى له زمان
كنت باقول لحضرتك على مقلة اللب اللي فى السد •• واحد يقف بعريّة
سجق جنبها •• الراجل ده ••

وعاد يحكى لى عن الرجل الذى تزوج احدى وعشرين امرأة دون
أن ينجب أطفالا لأن ربنا لا يريد ، ثم انتقل بى الى أن ارادة ربنا فوق
كل شيء •• ودخل بى فى حكاية طويلة أبعدتني تماما عن سؤالى
الأساسى • لاشك أنه لا يريد أن ينكأ هذه الذكريات المرة ! ••
وفى ذلك اليوم كتبت من روايتى أربعين صفحة •• تسعا وثلاثين
منها عن اللقاء الأول بين بنت الباشا وبين الشيخ سيد الذى كان يعمل
بستانيا فى حديقة القصر الكبير ! ••

وانقضت أيام وأنا أعمل فى الرواية بلا تراخ •• وكوم الأوراق
يطلو أمامى يوما بعد يوم •• حتى وصلت الى لحظة فق عينيه •• فكتبتهافى
أسلوب مؤثر لو قدر للمنفلوطى أن يقرأ لا عزل الكتابة تاركا آياها لأروباها •
وعندما بدأت أصف شعوره بعد فقد بصره •• خطر لى أن أرجع اليه فى
ذلك كما تقضى أصول الواقعية ، فجمعت أوراقى وارتديت ثيابى وخرجت
اليه •• ولم أعطه قرشا هذه المرة - فقد ارتفعت صلتى به عن هذا المستوى

كثيرا خلال الأيام الماضية - بل أخذت أجازبه الحديث بعض الوقت .. حتى
اقتربت من قصة عنييه مرة أخرى .. فسألته :

- تعرف يا شيخ سيد .. أنا متيهاً لى لو بقيت زيك أتتحر ؟ ..

- زى فى ايه يعنى ؟ ..

- ما أشوفش ! ..

فابتسم عن أسنان سوداء قدرة وقال :

- أنا خدت على كده يأستاذ خلاص .. وهى دى حاجة تزعل ؟

وكدت أشد يده مهنئاً على قوة روحه المعنوية .. فلا شك انه اجتاز
أزمة نفسية حادة بعد فقد بصره حتى وصل الى هذه المرحلة من الرضا ..
ولكننى قاومت الاندفاع الى التعبير عن الاعجاب به وقلت :

- طبعا دلوقت خدت على كده .. انما فى الأول كنت زعلان ! ..

- وأزعل ليه ؟ ..

- وهو فيه حد مايزعلش لما تروح عنه ؟ ..

فطوح برأسه ذات اليمين وذات الشمال وهو يقول :

- الحمد لله على كل حال .. ربنا هو المي وهب .. وربنا هو اللي

أخذ .. أزعل ليه ؟

وأحسست بالضيق من امعائه فى الانكار .. فقلت وأنا أريد أن
أصفه بشرات صوتي :

- ازاي ده ؟ .. دا الضيق أغلى حاجة عند الانسان ! ..

وربما بدا فى صوتى أثر لضعفى ، فقد كف عن تطويح رأسه ..
وابتسم وهو يقول :

— أصل يا أستاذ .. ربنا يخلق الحاجة علشان العبد يستفيد بها ! ..
عندك انجار .. يستفيد بإيديه .. ونسن السكين نسن المقص يستفيد
برجليه .. انما اللى زى حالانى .. على باب الله .. حيمعل ايه بنيه والا
بإيديه والا برجليه ؟ ! ..

وصمت قليلا .. وازدادت ابتسامته اتساعا .. ثم عاد الى تطويح
رأسه وقال فى صوت خفيض :

— دا يمكن الواحد لو كان من غير ايدين ولا رجلين .. كان يمكن
يكسب أكثر .. والا ايه ..

وفى تلك الليلة استأنفت كتابة الرواية ، ولكن عقلى لم يكن خالصا
للمسألة بنت الباشا ، فقد كانت عبارة الشيخ سيد الأخيرة تبرزلى بين السطور
تفسد على الانسجام وكنت أحيانا أسأله عما اذا كان مثل هذا الرجل الذى
يؤسفه أن يديه ورجليه غير مقطوعتين حتى يزداد كسبه ، يستطيع أن يشير
قلب بنت الباشا حتى تحبه وتتحرب بسببه ! ..

على أن هذا لم يمننى من المضى فى كتابة الرواية ، ويوما بعد يوم
عادت الصفحات تتراكم أمامى ، وفى نفس الوقت كانت صلتى تزداد توقفا
بالشيخ سيد . ولم أكن الوحيد الذى كان يندق عليه الاحسان ، فقد كان
اهل الأسرة يندفسوننى فى ذلك ، بل وألقوا الشيخ سيد مثلما ألقته . وفى
الحق أنه ظهر لنا بعد العشرة خفيف الظل ذكيا لاذعا فى تعليقاته على الحياة
والناس . الى أن جاء يوم بدأت فيه أشكك فى أنه أعمى حقا . فقد لاحظت

أنه لا يبدأ فى ترتيب القرآن الا اذا ظهر انسان فى أول الطريق ، وسأله
عن ذلك فقال :

- ربنا سبحانه وتعالى جعل لنا ودان تلتقط دبة النملة .. أنا قاعد قدام
حضرتك .. مش شايفك وانت بينك وبينك نص متر .. انما اللى بييجى

من هناك .. من آخر الشارع يسمع دبة رجله ! ..
ولم ألاحظ أثناء حديثه أنه أشار الى آخر الشارع كما يفعل المبصرون
عندما يقولون (من هناك) • على أن اخذاعى فيه لم يدم طويلا ، فقد
ارتبطت فى ذهنى أشياء سابقة ، منها أنه كان يرفنى أحيانا قبل أن يسمع
صوتى ، ومنها أنه نادانى أول مرة بلقب (أستاذ) دون أن يقول له أحد.
اننى ممن يطلقون شعر قفاهم ويلبسون (البيون) على الياقة المتشعبة •
وأخذت أراقبه عن كب حتى ضبطته يوما متلبسا بفحص قرش شك فى أن
أحد المحسنين خدعه فيه ، فاستوثق من أن الطريق خالٍ والنوافذ مغلقة
ثم قرب القرش من عينه الى درجة شديدة • وهكذا أدركت أنه ليس بأعمى.
وان كانت عيناه عشواوين وبصره ضعيفا •

وعندما كاشفته بهذا لم يعن فى الإنكار ، وانما ابتسم قائلا :

- أكل العيش عاوز كده يا أستاذ ! .. انما أوعى تجيب بسيرة
لحد ! ..

وفى هذا اليوم خرجت الى ميدان السيدة ، ووقفت أتطلع الى المذنة
السامة وقد اختلطت فى عقلى المفاهيم وترنحت القيم ، وأخذت أفكر
تجبرا فى الانسان ، والكرامة ، والحضيض والقيمة ، ومنذ هذه اللحظة
أخذت السرعة التى أكتب بها الرواية تتناقص تدريجا • وأحسست أن كثيرا
من الفقرات التى كتبتها عاجزة عن استيعاب هذه التجربة البشرية التى جمع

على رأس الحارة ، فنزقت صفحات كلمة وبدأت أعيد كتابتها بعد أن أخذت صورة بنت الباشا تبته أملم صورة الشيخ سيد .

واقضت أيام طويلة ، وبدأت ألاحظ على الشيخ سيد ملاحظة جديدة ، بدت تافهة أول الأمر ، ولكنها كانت بداية طريق قادني الى مزيد من اغسال بين قيم غريبة زادت من ترنح مفاهيمي القديمة عن الانسان والكرامة والحضيض والقمة . فقد لاحظت أن الشيخ سيد لا يرتل من القرآن الا آيتين اثنتين لا يغيرهما أبداً ، وفي يوم زحف فيه السأم على نفسي ، خرجت الى الشيخ سيد أتخكه بمحادثته ، فسألته دون هدف محدد من وراء سؤالي :

- انت يا شيخ سيد ما عندكش غير الآيتين دول ؟

فابتسم كاشفا عن أسنان سوداء وقال :

- وهم أهل كانوا ودوني كتاب عشان أحفظ ؟ .. دا الواد حسين فابنى كان بيحفظهم فى الكتاب وهو صغير .. حفظتهم منه .. وادى احنا شغالين بيهم من زمان .. مالهم ؟ .. نعمة ..

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أعرف فيها ان له ابنا ، وكان هذا خطأ هاما فى روايتى التى ضللت بين صفحاتها التراكمات ، فلم أشأ أن تأفكته ، وقلت له لا لشيء الا لأدفعه الى الكلام عن ابنه :

- طيب .. ماتخليه يحفظك غيرهم .. مش قاعد معاك برضه ؟ .. فطوح رأسه فى تأفف وضيق وقال :

- أعوذ بالله ! .. يحفظنى غيرهم ؟ .. دا لو طالع قطع لسانى عشان ما أقراش .. يعملها ! .. دا وآد وحش .. والنعمة الشريفة يا أستاذ يلاش تجيب لى سيرته ..

وبدا واضحا لي أنه لن يتكلم حرفا جديدا عن ابنه ، فهمت بمغادرته ،
ولكنه مضى يقول :

- اذا كنت عاوز تكسب في ثواب حفظني انت ..

ولاحت لي هذه الفكرة وسيلة أخرى لاستخلاص حقائق جديدة عن
حياته ، فوافقت عليها . وهكذا اتفقنا على أن يمر على في البدر يوم بعد انتهائه
من عمله ، فاقرا عليه من المصحف بعض الآيات .. وفي المساء طرق بابي
فقدته الى الحجرة الوحيدة التي تقل فيها الرطوبة ، وقدمت له مقعدا .
ولكنه أبى أن يجلس عليه مصرا على اقتراس الأرض ، وقلت له بعد
لحظات :

- أجيب لك تمنى بقي ؟ ..

فقال في اصرار :

- لا .. ربنا يجعله عامر - احنا جايين علشان نشغل .. يافه بيشا:
بالصلاة على النبي .. !

ولكنني ألححت عليه حتى قبل ان يشرب كوبا من الشاي ، فغادرت
الحجرة لاعداده ، وعندما عدت رأيته يمسك بين أصابعه بنصف قرش -
وبادرنى قائلا :

- شفت يأساذ .. واحد زبون ابن جرام استعمانى وادانى القرش
ده .. !

فتناولت القرش وفحصته ، فلم أر فيه ما يبييه ، فأعدته اليه قائلا :

- ماله يا شيخ سيد ؟ .. ده عال قوى .. !

- عال ؟ آل عال آل .. ! طيب بص ..

وعض القرش بنابه ثم أعاده الى فرايت أثر التابن منغمسين فيه ،
ومضى يطوح برأسه يمينا وشمالا ويقول :

— زباين ماعندهنش ذمة .. ! انما فكرك جيهرب منى ؟! .. أنا
عارفه .. هو مفيش غيره .. الراجل أبو جلاية خضرة انلى ذائع عطارة
عند السيل .. من زمان مش مطمئن للراجل ده .. باين عليه ماعندوش
ذمة ! ..

ومضى فى حديث طويل ، وكنت أقلب السكر فى كوب الشاي ،
ولكننى لم أسمع ما يقول ، ولم أتبّه الى أن السكر ذاب فعلا ، فقد كنت
شاردا فى طرق ملتوية مضللة من الافكار ، طرق تبدأ من الركن الذى
يقع فيه الشمخ سيد ، وتريد أن تنتهى الى كومة الاوراق التى على المكتب
حيث أكتب روايتى الكسيحة عنه ، ولكن هذه الطرق لاستشرف غايتها
وانما تعرج فى زوايا غريبة ، زوايا فيها مئذنة سامقة ، وأخرى فيها
بدروم رطب ، وثالثة فيها صوت أجش يصيح (زباين ماعندهنش ذمة)
ويختلط صباحه بصغير صراخير وزقزقة عصافير .. !
واتبعت من شرودى على صوته الأجش يقول :

— تعرف ياأستاذ .. الشغلة بتاعتنا دى .. عاوزة المفتاح الى يسلك
مع زباين بالشكل ده .. ! أنا ساعات بافكر .. وأقول فى عقل بالى ..
دا الواد حسنين عنده حق ! ..

والقطعت خيط حسنين من جديد فقدمت اليه كوب الشاي وسألته :
— عنده حق فى آيه بقى ياسيدى ؟ ..

وبدأ عليه كأنما لم يسمنى ، فقد مضى يرشف الشاي فى شغف ،
وناوله سيجارة غرسها بين شفتيه القذرتين ، ثم قام نصف قومة ليشعلها

من عود القلب الذى قربته منه ، وجذب نفسا عميقا منها نفخه فى الهواء
مثلثا ثم قال :

- من الواد حسنين يعنى ؟ .. سيك منه .. دا واد مقترى ! ..
دا أنا باقول كده يس من قرفى من الزباين اللى ذمتهم أستاذك دول .. لكن
فكرك يعنى ياأستاذ أنا باسمك كلامه .. ؟

ولم أكن قد فهمت شيئا حتى أجيبه عن سؤاله الأخير ، فسأنته
مستدرجا :

- تسمع كلامه فى ايه ؟

- الكلام اللى بيقوله دا يعنى ؟ .. عاوزنى أبطل شحاته ! .. انما
أبطلها ليه ؟ .. خايف يملولى محضر رسول ؟ ! .. طيب .. والنعمة
الشريفة ياأستاذ .. أنا عندى أنجس ولا أخليش واد زى ده يصرف
على ! ..
- وهو يشتغل ؟ ..

- دا واد نجار .. نجار مابوليا قد الدنيا ! وكسب صحيح ..
انما على مين ؟ .. على أبوه .. !

ومرة أخرى ، عادت أفكارى تشرذم من الركن الذى يقبض فيه ،
تستقر على كومة الاوراق التى أريد أن أضعه فيها ، وعادت صورة
المثدنة السامقة تصارع فى ذهنى مع حضيض البدنوم ، ومفاهيم الانسانية
وقيمها تختلط محاولة أن تمثل عبارته الاخيرة (على مين ؟ .. على أبوه)
.. وتتزاحم الصور لتختفى وتفسح المكان لصورة بنت البشا التى أريدها
أن تتحرر من حبه ، وهو ماض فى حديث طويل لا أعى منه حرفا ، ثم أفق
على صوته يقول :

- وانا كمان ماأقدرش أبطل التسحاة .. دا لو فات هل يوم
ماأسرحش فيه .. يتها لى انى خلاص .. عمرى آتتهى .. ماليش لازمه
فى الدنيا ! .. ثم معنى .. ما تأخذيش معنى أبطلها ليه ؟ .. دا أنا بأطلع لى
فى اليوم بخمسين ستين قرش .. أقل ما فيها ! .. معنى باكسب أكثر من
يوميته الى بياخذها .. وعامل لى بيها أبو على ! ..

ولم أجب ، لم تكن لى رغبة فى اجابته ، وحتى لو كانت عندى هذه
الرغبة لما أجبته أيضا ، فقد كنت أفكر فى هذه اللحظة فى شئ آخر ،
كنت أفكر فى تلك المعجزة التى خلقت حسنين من الشيخ سيد ؛ حسنين
بقتة بنفسه ، وتوفر انسانيته ، والشيخ سيد بذلك الركام من العفن الذى
يحقن تحته .. وبدا أن الشيخ سيد قد عدل عن انتظار اجابتي عن سؤاله
فقد صاح فجأة وهو يناولنى كوب الشاي :

- يدوم بأستاذ .. والنعمة الشريفة انت راجل أمير .. ياريت
الواحد يربى له عشرة اتناشر زبون زيك ! .. يالله بينا بالصلاة على النبي
.. الشغل .. !

وقمت ولما ألقى من شرودى ، فأحضرت المصحف ، وفتحته كيفما
اتفق ، وبدأت أقرأ :

- بسم الله الرحمن الرحيم ..

فقاطعتنى قائلا :

- حاسب عندك .. أما نطقى السجابر .. احسن حرام ! ..
وأطفأ السجارة ، ثم فرك الجزء المحترق بين أصابعه ، ووضعها فى
جيب الجلباب تحت الجبة ، ثم اعتدل فى جلسته وترجع فى أدب وقال :
- اقرأ بقى ياسيدى .. !

وعدت أقرأ :

- بسم الله الرحمن الرحيم .. هل أتاك حديث انفاشية ، وجسوم
يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تهلى نارا حامية •

ولكنه عاد يقاطعنى وهو يتململ فى جلسته :

- بلاش السورة دى .. شوف لنا غيرها !
فقلبت صفحات المصحف وأخذت أقرأ أيضا كيفما اتفق :

- بسم الله الرحمن الرحيم .. أأنتم من فى السماء أن يخسف
بكم الأرض فاذا هى تمور •

فقاطعنى فى سرعة :

- لا' .. لا' .. بلاش دى رخرة ! .. شوف لنا غيرها أمال !

- جرى ايه ياشيخ سيد ؟ .. مش كله قرآن ؟! ..

فقال وهو يدفع بكفيه أمامه :

- آى نعم .. كله كلام الله ! بس يعنى .. الآيات الى حضرتك
بتقرأها دى .. نار حامية .. ويخسف بكم الأرض .. الزباين تطفش !
.. أنا علوز حاجة تنفعنى فى الشغل .. حاجة كده زى .. وأما السائل
فلا تهر .. وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .. حاجة بالشكل ده !

فضحكت وأخذت أقلب المصحف بحثا عما يريد ، ثم بدأت أقرأ :

- وآتى المال على حبه ..

فقاطعنى وهو يتدل فى جلسته منتبها :

- آيوه ياسيدى .. قول .. أهه كده ! .. وآتى المال على حبه ..
آى نعم ! ..

- وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفى الرقاب •

زكّنه قاطنى وقد تجهّم وجهه :

- ياه ! .. كل دول ؟! .. ولما انزبون يفرق القرشين الى معاه على
دول كلهم .. يطلع السائلين بايه ؟ .. نكله ؟! .. لا ياعم .. يفتح
الله ..

ثم نهض واقفا وهو يقول :

- الآتين الى بناكل بهم عيش كويسين .. كفاية علينا ! ..

وبعد انصرافه .. وجدت نفسى أمزق كل ماكتبته من الرواية التى
سيخاطفها القراء ويتصارع عليها النقاد • انه لم يترك لى شيئا نبيلًا أستطيع
ان أقول انه يؤمن به ، كل مافى الوجود لحصه فى كلمة واحدة • هى
(أنا) حتى الدين • لايعنى شيئا بالنسبة اليه الا الرزق ! .. كل جارحة
من جوارحه ترجمها الى لفظ واحد • هو القرش • حتى عينه • ألغى
وجودها فى سبيل هذا القرش ! .. فكيف يتدل على بنت الباشا ؟! ..
لينتظر القراء • وليصبر النقاد • ولكننى لأستطيع ان أمضى فى كتابة
الرواية ! ..

وفى اليوم التالى حدث حادث غريب تسبب فى اختفاء الشيخ سيد من
الحارة ، بل ومن الحى كله • كنت عائدا الى جحرى بعد انظهر عندما رأيت
الناس متجمهرين على باب الحارة ، وسمعت صوت الشيخ سيد يصرخ =
- والنعمة الشريفة دا كذاب • ما تصدقوهش ياناس • لاهو أبنى
ولا أعرفه •

فاخترت الزحام لأرى الشيخ سيد يقاوم شابا حدث السن يجذبه
من ذراعه وهو يقول :

- فضحتنا ! .. سودت وشنا في كل حة ! .. يا أخى حرام
عليك ..

ووقفت أنفحص الشاب ، كأن نحىلا طويلا براق العينين حليق
بالحية ، يلبس سروالا وقميصا مما يلبسه العمال ، وأصابه التي تقبض
على ذراع الشيخ سيد غليظة خشنة تنتشر فيها أخاديد من أثر آلة قطعة ،
وكان جبينه المنعد وفمه المضموم في قوة يحكيان قصة كفاح مرير ، وخده
الغائر فيه عمق الحضيض ، بينما يتوسط وجهه أنف بارز سامق كرأس
مئذنة . وكان الشيخ سيد يقاومه في عنف وهو يردد :

- ياناس حوشوه عنى .. والنعمة الشريفة مش ابنى ..

فصاح به الشاب في ثورة حاقة :

- وكمان بتكر انى ابك .. ياراجل ياضلالى ..

فتقدمت منهما وقلت للشاب :

- انت حسنين .. مش كده ؟ ..

وبدت في عينيه دهشة لاننى أعرفه ، ولكنه قال :

- أبوه يا حضرة .. أنا حد خنين ابنه .. ومظبنى .. كل ما أروح

أفقهه في حة يهرب لحة تاتية .. بقى دى أصول ؟ .. مادام ربنا ساترنا
يشحت ليه ؟ ..

وكانما أدرك الشيخ سيد عندما رآنى ان انكاره لن يجدى فقد قال
فى أنفة واعتزاز :

- ومالها الشحاته يناد ؟ .. مش هي ائلى ريتك وختك بنى
آدم .. ؟ حبتلر عليها على الآخر ؟ ..

فقال الفتى وهو يجذب أباه ليسغى به :

- الشحاته صحيح ريتى .. ما انكرش .. وكنت زمان بتسحت
عشان تربيتى .. انما دلوقت أنا بقيت راجل .. وباشتغل .. وباكسب
.. لزومه ايه تفضل شحات ؟ .. دا انت محوش خمسيت جنبه ياأخى ! ..
وكان لهذا الرقم فعل السحر فى الجماهير ، فأرتفعت أصوات
(خمسيت جنبه ؟ .. دا أغنى متنا ! الراجل الضاللى ! .. شوف التتن)
.. وطالب بعضهم بضربه .. وشرعت الايدى تلوح فى وجهه مهددة ،
وأحس بأنه قد خسر عطف الناس ، فاستسلم لابنه الذى قاده الى الشارع
.. ثم الى الميدان .. ثم الى المجهول . فلم نره بعد ذلك فى الحارة .

هذه حكاية الشيخ سيد ، ولا أعرف ماذا حدث له ، ربما عاد للهرب
من ابنه ، فقد أدمن التسول كما فهمت ؟ ولم تكن نديه مثل يعيش بها
ولها . وربما كان قد عثر على أول الطريق الذى يقوده من الحفيض الى
القمة ، لاأدرى ؟ ولكننى أعرف ما حدث لى وان لم أفهمه تماما ؟ فانا لم
أكتب الرواية حتى الآن ، وقد مضت خمس سنوات أو سست ولم
يتخاطفنى القراء ويصطرع حولى النقاد ، وقد خلعت (البيون) والياقة
المنشاء ، وأصبحت حريصا على قص شعر رأسى ؟ ونسيت آلهة الأولمب
ومشكلاتهم ، كما نسيت بنت البشا وانتحارها . وهأنذا كاتب صغير فى
مصنع الزجاج ؛ أخرج من عملى قبيل الغروب منهكا مرهقا ، ولكننى أقف
فى نافذة غرفتى فى الطابق الثالث .. وأرى طرف المئذنة من بعيد ، فلا
أفكر فى الحفيض والقمة ، وانما أتذكر - لسبب غير واضح - حكاية
الشيخ سيد ؛ فأبتسم ؛ ثم أغلق النافذة واستلقى على فراشى فأروح فى نوم
عميق .

الدار القومية للطباعة والنشر

شركة ذات مسئولية محدودة

١٥٧ شارع عبید - روض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة راكتا



الكتاب الماسى
قصص عربية

== يصدر قريباً ==

قَارِئُ بَيْتِ الدُّيَا

الفائزة بجائزة الدولة لعام ١٩٥٨

رُؤْيَا أَبَا ظَهْرٍ

العدد ٣
المن ٢٠ قرشاً

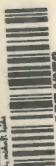
العدد ٣

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبید - روض الفرج - القاهرة

تليفون ٤٥٣٤٦ - ١٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥

Bibliotheca Alexandrina



0274976